
موتسارت

موتسارت

قصة الطفل المعجز والموسيقي العبقري

تأليف

دكتور محمود أحمد الحفني

الطبعة الأولى

١٩٣٩



فولفجانج اماديوس موتسارت

فى الخامسة والعشرين من عمره

فهرس الكتاب



مقدمة

عند بعض الأمم أن « المقدمة ملحمة الكتاب » وإذا أردنا أن نعلل هذا التعبير تعليلا منطقيا كان معناه أن المقدمة تشهي القراء وتحملهم على ازدراد ما في الكتاب ، ونحن نعتقد هذا ونؤمن به

والذين تتبعوا سيرة « موتسارت » أو كتبوا فيه ، وما أكثرهم ، لا يغيب عنهم أثر أبويه في تنشيئه ، فلقد كان أسلوب أبيه يسيطر على البيت ، وخبرته تتسلط عليه ، وكان يشيع في أنحائه ما وهب الله ذلك الأب من الجلد والصبر والتواضع ولين العريكة والرقة والدماثة والحدب على أبنائه — كل هذه الصفات كانت الأساس الذي أدعم عليه بناء أسرة « موتسارت »

نشأ « موتسارت » في هذه الأسرة التي اختلط دمها بلبان الشفقة البشرية وتعود عمل الخير والإخاء الانساني ، فأحس ، أول ما أحس ، في أبيه رائحة كريمة زكية في هواء صاف نقي ، بل لقد تشربه نغمة حلوة سرت في حنايا أضلاعه

هذا التعاطف بين الأب والابن كان أكبر العوامل في حدوث المعجزة وظهور العبقرية ، فإن الوالد ما كاد يلمس في ولده بوادر النبوغ

حتى سهر عليه ، وعكف على تثقيفه ، وتنمية المواهب الخارقة فيه، حتى بلغ الولد القمة واستوى على الغاية

وكم من العبقريات يخبو ضياها من جهل الوالدين ، وإهمالهما ، أو عدم تفهم الروح المسيطر على ولدهما ، وقلة تقدير النزعة التي تمتلك نفسه وحسه ، أو عدم إدراك المعاني السامية التي تجيش بنفس الصبي تدفعه إلى السمو والكمال .

ولد « موتسارت » عام ١٧٥٦ واعتبطته المنية عام ١٧٩١ فلم يقطع من سني الحياة غير خمس وثلاثين سنة قضى بعدها فتيا ودنيا الفن أحوج ما يكون إليه ، ولكن على الرغم من موته في ميعة الصبا ،وضآلة السنين التي عاشها ، وعلى الرغم مما صادفه من عوامل البؤس أحيانا والرخاء حينا وانقطاع موارد رزقه وقتا فقد غمر الدنيا بما لا ينقطع ذكره من الألحان، مثال الرقة وبدائع الافتنان

لم يترك ناحية من نواحي التلحين الموسيقى إلا طرقها وأبدع فيها طرائق وفنونا ، وحسب ألحانه الآلية أن بينها أربعين سنفونى متوجة هي من أنفس الزخر الموسيقى

كان شغفه بتلحين الأوبرا ناحية بارزة فيه تسيطرت حينا من الدهر على مزاجه الموسيقى فقد كان يبتكر الإعجاز في تلحينها دون أن يأبه

لموضوعها أو يبهم لغزاها ، فكان إذا لحن الأوبرا التافهة الموضوع أتى فيها بالسحر المعجز من الآيات الموسيقية ، حتى قال « فاجنر » في ذلك قولته الخالدة : إن «موتسارت» استطاع أن يرينا فى تلحين أوبراته أن الموسيقي تستطيع أن تقف وحدها على المرسح دون الاستعانة بالفنون الأخرى

هذا السلسال العذب من الألحان التي تصور ما فى النفس من مختلف العواطف وما يقع بينها من متباين النزعات

هذا السلسبيل الفيداق من الألحان التى تروى منازع النفس وتشبع مطامعها وتسلبها قوة التمرد والغلاظة

هذا السلسبيل الراوى من الألحان التي تبعث فى النفس الحنان والرحمة والطمأنينة والدعة ، والتى تعجز الألفاظ عن وصفها

هذه الآيات التي أخرجها « موتسارت » كانت تنزل من العاطفة الانسانية منازل البرء من السقم ، وكانت تنزل بقلوب المفجوعين المكلومين منازل الشفاء من العلة كانت بردا وسلاما يزيح عن تلك النفوس المحزونة كمدها المقيم ويحيلها نفوسا مستبشرة ضاحكة مطمئنة

على أن «لموتسارت» على الموسيقى فضلا أنبل من هذا قدرا وأخلد منه ذكرا، ذلك أنه منقذ الفن الألمانى ومحرر موسيقاه من الأسر الايطالي،

فلقد كان الفن الايطالي الى أيام « موتسارت » صاحب السلطان والنفوذ في جميع الأوساط الموسيقية ، بل لقد كان الفنانون الايطاليون يحتلون جميع فرق بلاط الأمراء والأشراف ، حتى لقد كان لزاما على الفنان الألماني ، لكي يحرز النجاح ويحصل على الفوز وإذاعة الصيت ، أن يقلد الأسلوب الايطالي وأن يتتلمذ على الايطاليين في بلده أو يرحل اليهم في بلادهم ، فهزامم « موتسارت » وانتصر وحرر فن بلاده فكان حقا غازيا ولكن بغير مهند وسنان

فهو في هذه الناحية مجاهد « سياسي » سلاحه عذب النغم وقوة الابتكار حرر بلاده من أسر لا يقل عن أسر الحكم بل هو أدق منه وأعمق لأنه فك عقال النفس والروح

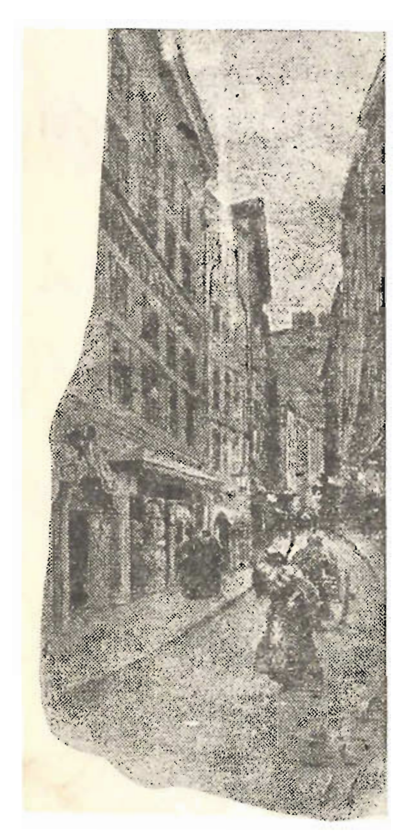
لقد حرر « موتسارت » وطنه من التسلط على حسه وشعوره فكان الرجل الذي صان لبلاده طابعها الفني واستقلالها الموسيقي

أما أثر « موتسارت » في الموسيقى، وما بذله من دمه وأذاب من مهجته في سبيلها وإشباعها رقة وسموا ، فسيشهده القراء واضحا جليا في ثنايا هذا الكتاب

دكتور محمود أحمد الحفني

طفل المعجزات

فى يوم صحو من أيام ربيع عام ١٧٥٩ كان طفل صغير ، لم يتجاوز الثالثة من عمره ، يلعب فى الطابق الثالث من المنزل رقم ٢٢٥ فى حارة « جترايدا » بمدينة « زالتسبورج » مقلدا بصوته ضربات الطبل ونغمات النفير . وقد يظن القارىء أن الطفل كان يسير فى أثناء ذلك بخطى منتظمة مقلداً سير الجنود الذين كان يشاهدهم كثيراً فى الطرقات ، غير أن هذا الظن لم يكن صائبا ، فإن ذلك الطفل الصغير ذا الصوت الدقيق لم يقصد إلى تقليد الجند ، إنما كان قد توسط الغرفة رافعا ساقيه الصغيرتين يلوّح بهما فى الهواء ، وقد وقف على رأسه . ولم تكن تلك الأصوات التى يعملها بفمه مقلداً بها الآلات إلا مصاحبة لتلك الحركات البهلوانية التى يعملها بساقيه .



حارة جترايدا بمدينة زالتسبورج وقد ظهر فيها إلى اليسار المنزل الذى ولد فيه فولفجانج موتسارت

فى تلك اللحظة دخلت أمه الغرفة ، وما كادت تراه فى هذا المنظر حتى صرخت تناديه :

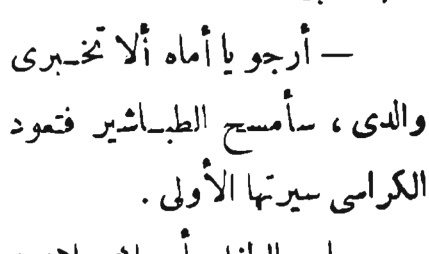
— فرلنجانج ، ما ذا تفعل ؟ إن الدم يسقط إلى رأسك فيؤذيك . فضلا عن أنك تتلف لباسك الجديد

— إن ملابسى لن تصاب بأذى ، فلقد كان رأسى هو الذى على الأرض ، أما لباسى الجديد فقد كان دائما فى الهواء

اكتفت الأم بهذه الملاحظة وهذا الجواب السريع ، وأخذت تنجز أعمالها فى الغرفة . أما الطفل فقد ترك هذه اللعبة البهلوانية وانصرف إلى غرفة أخرى مجاورة يبحث عن لعبة جديدة . وسرعان ما أخرج من جيبه قطعة من الطباشير أخذ يخطط بها الكراسى الجلد الموجودة بتلك الغرفة حتى ملأ الجلد رسما وتخطيطا ، وهو فى أثناء ذلك كله لم ينقطع لحظة واحده عن الغناء والتصفير

انهمك الطفل فى لعبته حتى نسى نفسه ، ولم يرده إلى الانتباه إلا صوت الأم وقد أقبلت عليه فزعة غاضبة تنهره :

— ماذا دهاك !! مقاعد والدك التى غطاها بالجلد حديثا تتلفها بالطباشير هكذا ! انتظر ، لقد عاد والدك الساعة الى البيت ، وسأذهب اليه



وأنبئه خبرك

— أرجو يا أماه ألا تخبرى والدى ، سأمسح الطباشير فتعود الكراسى سيرتها الأولى .



والدة فولفجانج موتسارت

وبادر الطفل فأمسك علابسه وهمّ بتنظيف المقاعد بها ، لولا أن سارعت الأم فاعترضته وقد نبهته إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يمحو ذنبا بذنب أكبر

هنالك انطلق الطفل إلى أمه ورمى بنفسه فى أحضانها وأخذ يتملقها فى صوت رقيق « هل تحبينني يا أماه ؟ »

فى تلك الآونة سمعت نغمات البيانو تنبعث من الحجرة المجاورة . وكانت هذه النغمات تمرينا لتدريب الأصابع لعازف مبتدىء . وبالرغم من أن هذه الموسيقى كانت مجرد تمرين فقد أحس الطفل عند سماعه إياها بقوة مغناطيسية تسرى فى بدنه كأنما يتمشى فى مفاصله تيار كهربائى

وما أسرع ما استحضر أحد المقاعد ووضعه خلف الباب وكان موصدا ، وصعد فوقه ليستطيع الوصول إلى مقبض الباب فيفتحه ، وما هى إلا بضع ثوان حتى كان الطفل داخل غرفة البيانو

وقف «فولفجانج» إلى جانب البيانو يرقب شقيقته« ماريانا » وكانت تكبره بخمس سنوات ، وقد جلست إلى البيانو تتدرب على العزف به ، وإلى جانبها والدها « ليوبولد موتسارت » يرشدها فى الدرس ويقودها فى التدريب . وكان الوالد مجيدا فى العزف بالبيانو كما كان ماهراً فى الضرب بآلة الكمان ، ولكن الطفل ما كان يسر بعزف أبيه ، لصعوبة فهمه ،قدر ما كان يسر بسماع هذه التمارين البسيطة التى كانت تؤديها أخته. ولم يكن سروره بها لقدرته على فهمها فحسب ، بل لأنه كان يعتقد فى نفسه أنه يستطيع أيضا أن يؤدى مثل هذه التمارين .

وقف الطفل ووضع يديه خلف ظهره ، يراقب حركة أصابع شقيقته مراقبة عنيفة مجهدة ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد برغم صغر سنه ، وبرقت عيناه كأنما تتقدان نارا

لم تكن هذه أول مرة يستمع فيها الطفل إلى أخته وهى تتدرب على العزف بالبيانو ، بل كان يحرص دائما على حضور دروسها فيصغى إليها بكل جوارحه ، ويتابع حركات أصابعها بنظرة متابعة دقيقة .

لم يكتف الطفل اليوم بمجرد السماع ، بل صمم فى نفسه أن يقلد شقيقته فى العزف. وما كاد ينتهى درسها وتترك مقعدها حتى جلس الطفل إلى البيانو وأخذ يقلد عليه حركات أصابعها تقليداً تاما ،حتى لقد أعاد من

ذاكرته جميع أصوات التمرين الذى أعطاه الوالد لماريانا على البيانو دون أن يخطىء صوتا واحدا

كاد الوالد ألا يصدق أذنيه ، إذ استكثر الأمر على ولده الذي لم تتجاوز سنه ثلاث سنوات ، وانسحبت « ماريانا » على أطراف أصابعها تستدعي والدتها ، وقد وقف ثلاثتهم خلف الطفل الصغير يسمعونه فى دهشة وينظرون فى عجب الى تلك الأصابع الصغيرة تنتقل على مفاتيح البيانو تنقلا صحيحا ، والطفل مشغول عنهم بعزفه ، بل لم يحس وجودهم إطلاقا إلى أن أقبل الوالد إليه وركع أمامه وضمه إلى صدره وأخذ يغمره بالقبلات فى فمه وجبينه وسائر وجهه وهو يقول

« فولفجانج ! أيتها الزهرة العجيبة ، ستكون فى المستقبل موسيقيا وأى موسيقى »

* * *

كانت ألمانيا حتى ذلك الوقت ، أى فى منتصف القرن الثامن عشر لاتزال تتألف من عدد كبير من المقاطعات الصغيرة ، ولكل منها بلاط مستقل غاية فى البذخ والترف . وكان أشدها بذخا وأكثرها ترفا بلاط المطران « زيجسموند » أمير مقاطعة « زالتسبورج » وكانت له فرقة موسيقية خاصة، ضمن أفرادها «ليوبولد موتسارت» والد طفل المعجزات

ولد « ليوبولد موتسارت » فى مدينة « أوجسبورج » بألمانيا ،

وكان عظيم الرغبة فى دراسة الحقوق ، ولكنه لفقره وضيق ذات يده عجز عن المضى فى هذه الدراسة وفشلت جميع محاولاته لتحقيق تلك الرغبة فى مسقط رأسه فرحل إلى مدينة « زالتسبورج » وكان بها يومئذ جامعة ولكنه عجز فيها كذلك عن استمراره فى دراسة الحقوق



ليوبولد موتسارت

وكان « ليوبولد موتسارت » مشغوفا بالموسيقى من صغره متعلقا بها. أجاد العزف بآلة الكمان حتى أصبح من أمهر العازفين بها ، بل لم يكن له فى مقاطعة « زالتسبورج » جميعها كفوا فى العزف بتلك الآلة ، فلما سمع به المطران « زيجسموند » أمير تلك المقاطعة ضمه إلى بلاطه عضوا فى فرقته الموسيقية

ولكن هذا الأمير المتصوف لم يكن ، مع عظيم الأسف، ليفرق كثيرا فى المعاملة بين أعضاء فرقته الموسيقية وبقية خدمه ولقد ضاق «ليوبولد» ذرعا بتلك المعاملة وكان يحس مرارتها فى قرارة نفسه حتى لقد فكر كثيرا فى السعى فى إيجاد عمل له فى بلد آخر ، إلا أن هذا لم يكن بالأمر الهين ذلك بأن جميع الفرق الموسيقية فى بلاط المقامات الألمانية المختلفة كانوا جميعا من الإيطاليين. وكان من أكبر فضائل المطران « زيجسموند » أن جعل فرقته مقصورة على الفنانين الألمان ، كما كان من مزاياه أيضا رعايته لأرامل من يتوفى من هؤلاء الأعضاء فيقف لهن ما يضمن معاشهن ، وهذا ما حمل « ليوبولد » على المكث فى بلاط الأمير إذ أنه كان كثير التفكير فى مصير أسرته .

وإذ كان مرتب « ليوبولد » فى فرقة الأمير زهيدا لا يتجاوز الأربعمائة جولدن فى العام ، أى نحو الثلاثة جنيهات فى الشهر (الجولدن=١٫٧٠ شلنا) فقد حاول أن يجد له عملا إضافيا يزيد فى رزقه

الى جانب وظيفته فى تلك الفرقة ، فأقبل على إعطاء دروس موسيقية فى العزف بالكمان وآلة البيانو كما كان يقوم بتلحين المقطوعات الموسيقية

ولم تنحصر شهرة « ليوبولد » الموسيقية فى « زالتسبورج » بل لقد ذاع اسمه فى ألمانيا جميعها ، وعرفه كل راغب فى دراسة الكمان دراسة حقيقية ، ذلك بأنه مؤلف كتاب «دراسة الكمان» وهو خير ماصنف من نوعه فى ذلك الوقت ،حتى لقد ترجم إلى اللغتين الفرنسية والهولندية

رزق « ليوبولد » من زوجه سبعة أطفال لم يعش منهم غير «ماريانا» و « فولفجانج » وكان الوالدان قريرى العين بهذين الطفلين سعيدين بهما

ولقد جلّت حادثة « فولفجانج » فى محاولته تقليد عزف شقيقته بالبيانو عن استعداده الفطرى العظيم في الموسيقى، وكان والده معلما مجيدا ومربيا محنكا لم تخف عليه تعرف هذا الاستعداد ورعايته والسهر على نمائه ونضوجه .

دأب الوالد على تدريس البيانو لطفله فكان الولد يتقدم تقدما عجيبا حتى بلغ درجة شقيقته فى العزف وحصّل كل ماكانت قد سبقته به، برغم ماكانت عليه هى الأخرى من الاستعداد الغرزى للموسيقى

لم يكن هناك جديد فى الموسيقى يجهله « فولفجانج » حتى كان يخيل لوالده عند ما كان يلقنه درسا جديداً أن للطفل معرفة سابقة به ، كأنما كان كل شيء كامنا فيه لا يحتاج لإيقاظه إلا إلى إشارة بسيطة

نعم ، لقد كمنت فى هذا الطفل جوهرة ثمينة تذكرنا بالمصور الفرنسى « كلود لورا » الذى أراد أهله أن يكون حائكا ، فلما فشل فى تلك الحرفة أرادوا أن يجعلوا منه بنّاء ، فلما فشل أرادوه خبازا ففشل كذلك فشلا ذريعا ، حتى إذا كان فى روما ودخل قصر أحد الكرادلة ووقع بصره على إحدى الصور القيمة فيه أخذ قطعة من الفحم ورسم بها تلك الصورة بدرجة من الجودة هزت الكردينال صاحب القصر وأثارت إعجابه فأمر بإلحاق الطفل توا بمدرسة التصوير

كان « لفولفجانج » أذن موسيقية خارقة للعادة ، وذاكرة موسيقية قوية أتاحت له أن يعيد عزف أية قطعة تعزف أمامه .

لم يمض غير قليل على « فولفجانج » حتى تجلت عبقريته وأصبحت لا تقنع بالعزف بل تطلعت إلى التأليف الموسيقى ، لكن والده لم يشأ أن يجاريه فى هذه النزعة الجديدة رغبة فى التمهل فى تلك الناحية ، ورفض أن يدرس له علم صوغ الالحان .

إلا أن عبقرية « فولفجانج » أبت أن تمهل الوالد فأسعف الطفل نفسه فى هذه السبيل ، ذلك بأنه — وكان فى الرابعة من عمره — أخذ فى ذات ليلة قطعة من ورق النوتة وصار يسود صفحتها بالمداد ولما لم تكن فى قدرة الطفل إذ ذاك معرفة استعمال القلم والمداد فقد كانت نقطه تتساقط على صفحته واحدة بعد الأخرى . وظن الطفل أن خير وسيلة

لتلافى ذلك أن يجرى بكمه على نقط المداد فوق الصفحة ليزيلها ، وبذلك غطيت رؤوس العلامات الموسيقية التى كان قد رسمها بسحابة من المداد حجبتها . ولكن هذا لم يزعج الموسيقار الصغير فقد استمر فى عمله يكتب علامة بعد أخرى ، والمداد يتساقط نقطة بعد أخرى ، وهو يكرر عملية المرور بكمه على المداد فى الصفحة حتى أصبحت يده سوداء ولكنه كان يكتب ، ويكتب ، ولم يتوقف عن الكتابة إلا لحظات قليلة يرفع فيها رأسه ليترنم بالنغمة التى كتبها

وإذا بصوت الوالد يفاجئه على غير انتظار .

— فولفجانج ! ماذا تفعل ؟

— إنى ألحن قطعة للبيانو من نوع (الكونسرت)

— لا بد أن يكون ذلك شيئاً عجباً ، أرنى ماذا فعلت .

قال الوالد ذلك ، وهو يضحك ساخراً ، ولكن الطفل ظل واضعاً يده فوق الورقة وقد حاول الوالد التقاطها منه

— لا لا . لم أتمه بعد . لم أتم إلا الجزء الأول فقط

— لا بأس ، دعنى أرى ما فعلت

ثم تناول الوالد الورقة ونظر إلى كتابة الطفل غارقة فى المداد فقال لطفله وقد أغرق فى الضحك :

— إنها كالبحر الأسود

ولكن سرعان ما ارتسمت على محيا الوالد أمارات الجد ، إذ لاحظ أن الورقة وإن كانت ملأى بنقط المداد ورسومات وتخطيطات كاللعب (نكش الفراخ) إلا أنه كان من السهل عليه أن يتعرف فيها العلامات الموسيقية التي قصد إليها الطفل ، وأنه كتب حقيقة قطعة موسيقية ، ولقد بلغ من تأثر الوالد أن ارتمدت يده وهى ممسكة بالورقة ثم قال مخاطبا طفله :

— مرحى ! مرحى ! ولكن قطعتك هذه صعبة الأداء عمليا

— وهي من أجل ذلك قطعة (كونسرت) وينبغى للمرء أن يطيل التدريب عليها زمنا كبيرا حتى يصبح فى استطاعته عزفها

قال « فولفجانج » ذلك بثبات الواثق من نفسه ، وسرعان ماقصد إلى البيانو وأخذ يعرف عليه ، بيده القذرة ، مقطوعته التى ألفها والتى كان يجرى لحنها فى رأسه

***

كانت أسرة موتسارت تعيش فى معزل عن الناس إلا أصدقاء قليلين كانوا موضع ثقتهم، يتزاورون معهم من حين لحين . وكان الجميع يعجبون باستعداد «فولفجانج» المعجز وعبقريته الموسيقية الخارقة ، حتى لقد خشوا أن يكون لهذا النبوغ أسوأ الأثر فى جسم الطفل فيكون خطرا على نمائه ، اذ أظهرت التجارب أن أمثال هؤلاء الأطفال ممن تهبهم الطبيعة

استعداداً خارقا لا يعمرون طويلا . وكان القوم مازالوا يذكرون نابغة « ليبك » الذى كان وهو فى السادسة من عمره غزير المعرفة يجيد عدة لغات أجنبية ، ولكنه مات فى هذه السن

لئن نازعت الوالد « موتسارت » تلك الوساوس أحيانا ، لقد كان قليل الخوف على طفله ،ذلك بأن «فولفجانج »ظل دائما طفلا فى قرارة نفسه،وكان كبقية الأطفال جميعا يسر باللعب ، حتى ليغالى فيها ، بما جعل فى حياته توازنا كبيرا بين الطفولة المرحة والنضوج الفنى

وكان الوالد يلقن طفله الدعاء كل ليلة قبل نومه مبتهلا إلى الله أن يرعاه وأن يحفظ له والديه .

أخذ الوالد يرقب عبقرية طفليه ، فقد ظهر لمريانا أيضا نبوغ فى هذا الفن عجيب ، حتى لقد اعتقد الوالد اعتقاداً جازما أن الله سبحانه وتعالى قد منَّ عليه بهذا الكنز الثمين ، وحرام عليه أن يدفنه فى « زالتسبورج » الضيقة

إذن فقد آلى الوالد على نفسه أن يهيىء لطفليه سبيل الشهرة العالمية وأن يجعل منهما فنانين عظيمين تخلدهما بطون التاريخ. وكان «ليوبولد» رجلا عمليا ذا تجارب عجيبة فى الحياة مكنته من تحقيق هذا الأمل على خير طريق

رحلة إلى فيينا

فى صبيحة اليوم الثالث من شهر اكتوبر عام ١٧٦٢ وقف رهط من المسافرين على شاطىء نهر « الدونا » فى مدينة « لنز » ينتظر إقلاع أحد المراكب ، وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للانتقال بين «لنز» و«فينا»

وكان بين السفر رجل قوى البدن ،فى مطلع العقد الرابع من عمره، وقف على الشاطىء وإلى جانبه حقيبة كبيرة وصندوق للبيانو .وبالقرب منه طفل فى السادسة من عمره ،ضحوك الثغر ، منشرح الصدر ، وفتاة تكبره ببضع سنين ، وقد وقفا يراقبان الحشد المجتمع

هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم الوالد «موتسارت » وطفلاه ، وكانت هذه هى الرحلة الثانية له معهما ، أما الرحلة الأولى فكانت إلى مدينة «ميونخ» عاصمة مقاطعة « بافاريا » حيث عزف الطفلان أمام أمير تلك المقاطعة فكانا منه ومن حاشيته موضع الإعجاب الشديد . ثم زارا مطران مدينة «بساو» إجابة لدعوته إياهم ، وهم الآن فى طريقهم إلى « فينا »

إنساب المركب يسير الهوينا في النهر ، ذى الماء الأزرق ، وكان يسمع لصوت المجاديف إيقاع منتظم فى حركتها أمام وخلف .

وكان الركاب ، كما هى العادة ، خليطا من مختلف الطبقات ومتباين المهن ، فمن بينهم التجار والعلماء ورجال الدين والفلاحون والصناع .

وكان « فولفجانج » يشغل نفسه تارة بالحديث مع هؤلاء المسافرين وتارة ينفرد وحده بإطعام الدجاج والفراريج والحمائم التي أعدها الفلاحون فى قفص كبير للذهاب بها إلى السوق ، ولقد أصبح بينه وبين كثير من الركاب مودة وإيناس كأنه عرفهم من زمن بعيد . ولقد تصادق بصفة خاصة مع رجل إيطالى من البندقية كان رحب الصدر لم يمل من الأسئلة المديدة التى كان الطفل يتوجه بها إليه مستفهما عن كل ما هو حوله من المناظر والظواهر الطبيعية . وكان كثير الإصغاء لهذا الإيطالى ، وقد أخذ يقص عليه تاريخ تلك الجهات من الزمن الغابر منذ الحكم الروماني حتى غزو الأتراك لها .

وكلما امتد الطريق ضاق النهر ، واقتربت الجبال إلى شاطئيه ، وزادت سرعة التيار .

لقد انحرف النهر وانعطف ، وأخذ المركب يبطىء فى سيره ، فقد كانت هذه أخطر نقطة في الطريق حيث تهب فيها ريح شرقية مخيفة

مضت ساعتان طويلتان كان المركب يغالب فيها الريح الشديدة ، حتى أحس الركاب الخطر الداهم ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الخوف ، وارتسم الذعر على جبين عمال المركب ، وكان بين الركاب قسيسان أخذ يبتهلان إلى الله ويوزعان على المسافرين صورا مقدسة ، وكان الوالد موتسارت متدينا فسرعان ما دعا ولديه وطلب إليهما أن

يصليا لله وأن يسألاه الرحمة والسلامة

نجا المركب من موطن الخطر ، وإن كان التيار لا يزال شديدا ، والماء لا زال يرغي ويزبد . سار المركب فى منطقة السلام فتنفس الجميع الصعداء ، وعادت إلى « فولفجانج » طمأنينته

وبلغ المركب مدينة « إبس » وهى مدينة صغيرة على الشاطىء الأيمن للنهر . وكان من المقرر أن يظل فيها مدة من الزمن غير قصيرة ليأخذ منها حمولة جديدة ، فانتهز الركاب الفرصة ونزلوا الى المدينة يتروحون من عناء هذا السفر النهرى الشاق ، ولقد توجه أكثرهم الى الكنيسة ، ومن بينهم الوالد موتسارت وطفلاه والرجل الإيطالى ، حيث شكروا الله نجاتهم وسلامتهم

هنالك فى الكنيسة وقد وقف الجميع يبتهلون ويصلون انسحب « فولفجانج » خفية إلى آلة الأرغن ، وكان لم يسبق له العزف بها ، ولكن مفاتيحها كانت تشبه مفاتيح البيانو تماما ، إذن فلماذا لا يحاول العزف بها . قصد الطفل الى الأرغن وعزف ، وسرعان ما تبين اختلاف طريقة العزف بينها وبين آلة البيانو ، غير أن أصوات الأرغن دوت فى الكنيسة حلوة كأنها السحر ، ورقت النغمات فى إنسجام نادر عجيب

بهر من فى الكنيسة فأنصتوا فى خشوع ، وعرف الوالد موتسارت أن هذا العازف المجيد لا بد أن يكون ولده « فولفجانج » ، وما كان أشد

دهش الركاب، حين صعدوا إلى آلة الأرغن يبحثون عن مصدر تلك الأصوات الملائكية، إذ رأوا الطفل الصغير تجرى أصابعه بمهارة عجيبة فوق مفاتيح تلك الآلة الضخمة وقد اختفى وراءها جسمه الصغير النحيل

لم يعبأ «فولفجانج» بمستمعيه، بل ظل غارقا فى عزفه، وكان تأليفا من مخيلته. ولقد انهمرت دموع الفرح على خدى الوالد «موتسارت» لما رأى طفله يعزف بآلة الأرغن لأول مرة عزفا يخلب الألباب وهو لم يلمس تلك الآلة طوال حياته

وكان أشد المستمعين تأثراً بعزف «فولفجانج» صديقه الإيطالى، فقد وضع يده فوق رأس الطفل يمسحها وهو يدعو له بقوله

«أرشدك الله إلى سبيل الخير، ووجهك إلى طريق الشهرة»

استأنف المركب سيره، وبعد بضعة أيام انتهت تلك الرحلة النهرية الجميلة، وبلغ المركب غايته، وكان ذلك فى مساء ٦ من اكتوبر، وكان على الركاب قبل دخولهم فينا، مدينة القيصرية، أن تفحص أمتعتهم بمعرفة موظفى الجمارك. بدأت عملية تفتيش الأمتعة، وتأكد الوالد «موتسارت» أنه لا بد من انقضاء ساعات طويلة قبل أن ينتهى الموظفون من عملهم وقبل أن يسمح له بالنزول الى المدينة

سار «فولفجانج» بين هذا الجمع الحاشد من الناس حتى وصل الى أحد موظفى الجمرك وأخذ يسائله

— لماذا تفتح جميع الصناديق والحقائب ؟

— لمعرفة ما تحويه ، وما فى داخلها

— انكم كثيرو التطلع

أعجب الموظف بهذا الطفل الساذج ، وأخذ يشرح له سر عملية التفتيش . وسرعان ما سأله الطفل

— واذن فلا بد أنكم ستفتحون ذلك الصندوق الذى ينطوى على البيانو ؟

— طبعا ، ومن الذى يعزف به ؟

— أنا

— أنت ؟ إنك لا تزيد فى الطول على ثلاثة قوالب من الجبن. أتريد أن تقول إنك تعرف العزف بالبيانو ؟ إن أصابعك لتعجز لصغرها عن القيام بهذا العمل

أحس الموسيقار الصغير الاهانة فى صميم نفسه ، ورغب أن يبرهن للرجل على صدق قوله فى الحال . وسايره الموظف على سبيل المداعبة ، فطلب الى أحد العمال استحضار الصندوق وفتحه ، وسرعان ما جلس فولفجانج الى البيانو وأخذ فى عزف قطعة « منيويت » دهشت جميع المستمعين .

ولقد أخذ الموظف يضرب يدا بأخرى من شدة دهشته كما استولى

العجب على جميع زملائه . كل هذا وفولفجانج يتنقل فى عزفه من قطعة الى أخرى حتى تغلغل فى موسيقى الرقص ، ووقف الحشد نشوان بخمر موسيقاه

وحمد الوالد موتسارت لطفله ما قام به ، وإن كان عن غير قصد إذ كانت نتيجة ذلك أن عني القوم بهم فكانوا أول من سمح لهم تفتيش الجمارك بدخول المدينة

وهكذا استقبل « فولفجانج » مدينة فينا عند دخولها أولي مرة

فى بهو القيصرة (ماريا تريزا)

كان غرض « ليوبولد موتسارت » من الحضور بطفليه إلي فينا أن يحيي بها حفلات موسيقية عامة فقد كان يعتقد أنه لو تم له غزو مدينة القيصرية، فإن أبواب العالم ستفتح أمامه ولم يجد الوالد صعوبة في تنفيذ فكرته ، فقد وجد الطريق معبدة ، إذ كانت شهرة طفليه قد سبقتهما إلى فينا كان النبيل الشاب « بالفى » قد سبق له أن سمعهما فى مدينة(لنز) وأعجب بهما أيما إعجاب وكذلك كان الشأن مع غير قليل من نبلاء تلك المدينة حتى لقد ترامت شهرتهما إلي القيصرة العظيمة « ماريا تريزا » ورغبت فى سماعهما لترى بنفسها هذا الإعجاز الفنى الذى يتحدث الناس عنه. وهكذا عمت شهرة الطفلين البلاط والأوساط

الارستقراطية في فينا

وكان « ليوبولد موتسارت » يحمل معه خطاب توصيـة للنبيلة « سنزندورف » التي أكرمت وفادته وأحسنت استقبال طفليه ، حتى لقد خصصت لهم جناحا من قصرها أنزلتهم به طوال مدة إقامتهم بفينا

وإذ كانت تلك النبيلة من أقدم الأسر عراقة فى النبل فقد كانت ضيافتها للوالد موتسارت وطفليه سبيلا للتعرف إلى جميع الأسر النبيلة الارستقراطية فى العاصمة

ولا شك أن غالبية من استمعوا للطفلين لم يكونوا ذوى دراية تامـة بالموسيقى ، أو بتفهم فنهما على الوجه الأكمل إنما كان إعجاب الكثيرين منهم منحصرا فى رؤية طفلين فى هذه السن لهما تلك المهارة فى العزف ، سيما « فولفجانج » فقد كان موضع دهشة الجميـع إذ كان فى السادسة من عمره ، وكان على صغره يقوم بعـزف أصعب المقطوعات بسهولة ممتنعة النظير ، كما كان يعزف أشهر مؤلفات أعلام الموسيقى الأمر الذى لم يسمع العالم به من قبل فى هذه السن المبكرة.

بلغ مسامع القيصرة « ماريا تريزا » خبر وجود أسرة موتسارت في فينا فأرسلت الأمين الأول « بارون فون شتاوفن » لاستدعاء الوالد وطفليه

وقف ثلاثتهم فى غرفة الانتظار هنيهة ينتظرون شرف المثول أمام

جلالة القيصرة وإذا بباب يفتح ، لغرفة فسيحة غاية فى الأبهة غطيت جدرانها بالستائر الحريرية والمرايا ذوات الإطار الذهبى ، ولقد تدلت المصابيح الذهبية من السقف المزركش بالنقوش والصور ، وكانت السجاجيد والرياش وكل شىء فى الغرفة ينم عن مبالغة فى العز والثراء ، حتى أرض الغرفة كانت ناعمة تبرق كالمرآة ينعكس عليها كل شىء

على كرسى مرتفع يعلوه تاج ذهبى جلست القيصرة « ماريا تريزا » وبرغم أنها كانت فى الخامسة والأربعين من عمرها فقد كانت لا تزال ذات جمال رائع ، لا تنم نضارة وجهها عن تلك السن الطويلة من حياتها وكان يحف بها فى جلستها أطفالها الأمراء والأميرات ، وبينهم الأميرة الصغيرة « ماريا أنطوانيت » وكانت فى السابعة من عمرها وهى التى صارت فيما بعد ملكة فرنسا ، ونفذ فيها حكم الإعدام فى الثورة وقد ارتكن على البيانو فى الغرفة « فرانس » زوج القيصرة ، وظهرت الحاشية فى نهاية الغرفة فى جموع محتشدة بملابسهم الرسمية

ولم يكد « الوالد موتسارت » يدخل وطفلاه الغرفه حتى أقبل عليه « فرانس » زوج القيصرة وقدمه إليها

— هل أنت هو الطفل الذى مهر فى العزف بالبيانو ، والذى يروى الناس عنه قصصا خيالية معجزة ؟

وجهت القيصرة هذا القول إلى الطفل ، وقد استقبلته بذراعين

ممدودتين تجسم فيهما عطف الأمومة

— نعم يا مولاتى جلالة القيصرة ، إنني هو

كذلك كان جواب الطفل دون أن يظهر عليه أى أثر للخوف أو أن تأخذ منه هيبة الموقف الرهيب ، ودون أن يؤخذ تلألاء كل ما يحيط به

أعجبت القيصرة ؛ نظره قبل أن تسمع عزفه فاستمرت تداعبه وهى تقول :

— وهل تخاف العزف ، تصور ، أيها الطفل ، أن حشدا كبيرا من علية القوم سيسمعونك وهم يجيدون فهم الموسيقى ، ودرايتهم بها واسعة وانهم سينقدون عزفك بالبيانو نقدا قاسيا

فالتفت « فولفجانج » إلى وراء ملقيا نظرة سريعة على الحاشية بعينيه الوقادتين ، ثم قال وهو يبتسم

— إن منظرهم لا ينبىء عن تلك المعرفة فى الموسيقى يا مولاتى

فضحكت القيصرة ضحكة عالية رددتها الحاشية ، وإن كانت قد قبلت دعابة الطفل على مضض

ومسحت القيصرة على خد الطفل وقالت مخاطبة زوجها فرانس :

— أليس هذا الطفل قطعة من الذهب إنى ليعجبنى منه جرأته وإقدامه ، فهو من الشجاعة بحيث لا يخشى شيئا

ثم أرادت القيصرة أن تسترسل فى مداعبتها لفولفجانج فاستمرت تقول له :

ــ وإذا كان القوم هنا لا يفهمون كثيرا فى الموسيقى فمن الذى يستطيع الحكم لك على مهارتك فى العزف ، ومن الذى سيدرك حقيقة قدرتك وإعجازك فى البيانو ؟

وما كان أشد عجب الجميع عندما أجاب فولفجانج بصوت مرتفع :

ــ وهل السيد «فاجنزايل» ليس هنا إنه هو الذى يفهم الموسيقى وفى استطاعته الحكم لى أو علي ، فلا بد أن يكون حاضرا

وكان « فاجنزايل » هذا من أشهر الموسيقاريين وعازفى البيانو وقتذاك ، وكان مدرس القيصرة . وهو فى ذلك الوقت مدرس أطفالها .

ولقد أدهش الحفل طلب الطفل حضور هذه الشخصية الفنية لتكون حكما على قدرته ومهارته وازداد إعجاب القيصرة بالطفل فحققت له رغبته وأرسلت فى طلب الموسيقار « فاجنزايل »

وهنا خاطب فولفجانج زوج القيصرة بقوله

ــ هذه شقيقتى « ماريانا » أرجو أن تتفضل بتقديمها لجلالة القيصرة فإنها تجيد العزف مثلى تماما

فسألته القيصرة

ــ وهل تحب شقيقتك ؟

ــ أحبها غاية الحب

ثم نظر الي القيصرة بسذاجة الطفولة ، وهى تبسم له، واستمر يقول:

ـــ لكن أحبك أنت أيضا

ـ هذا شيء يسرني جدا ....وما مقدار حبك لي ؟

ـــ أحبك حتى لأرغب في تقبيلك

فحملته القيصرة على ركبتيها وما أسرع أن طوق الطفل وجهها بذراعيه الصغيرتين وقبلها

تبرمت الحاشية بهذا الطفل الصغير الفقير الذى أتلف مراسيم « البروتوكول » ولم يرع « الإتيكيت » الواجب مراعاة الدقة فيها

أما الوالد موتسارت فقد جمد في مكانه كأنما سقط عليه لوح من الثلج

ولكن القيصرة وأسرتها كانت على نقيض ذلك فرحة بالطفل ، مغتبطة به ، تداعبه وتضحك له ، ولقد ردت له القيصرة قبلاته لها بقبلات مثلها له

وحضر الموسيقار « فاجنزايل » وما كاد يراه زوج القيصرة حتى قال لفولفجانج

ـــ هذا هو الموسيقار الذى رغبت في حضوره لسماعك والآن أرنا ماذا تعرف

ثم أخذ بيده الى البيانو فجلس الطفل اليه وهو يقول مخاطبا الموسيقار « فاجنزايل » :

—إنى مسرور لوجودك ، وسأعزف قطعة كونسرت من تأليفك . ولكن أرجو أن تقف فى أثناء العزف إلى جانبي تقلب لى صفحات النوتة

بدأ فولفجانج فى العزف فكانت الأصابع الصغيرة فى حركتها فوق المفاتيح كأنما تطير ، وانبعثت الترعيدات والترديدات ، وانسابت النغمات الحلوة كأنها سحر ، وطاف بسماء المكان ألحان رقيقة ملائكية كانت تخيل للسامع أن أوتار البيانو تغني تحت أصابع الطفل التى كانت كأنها مشبعة بالشعور ، ملأى بالإحساس

انحبست أنفاس جماعة السامعين ، وإذ قرب من الختام لم يشأ الطفل أن ينتهي كما ينتهى كل عازف ، بل اختار جملة موسيقية من آخر قطعة عزفها وصار يؤلف عليها من مخيلته حتى لقد رؤى الدمع ينهمر من خدى الموسيقار « فاجنزايل » من شدة التأثر

لقد عمت الدهشة جميع الحاشية ، رجالا ونساء ، وتأثرت القيصرة تأثرا بالغ الحد ، فقد كانت هى نفسها موسيقية بارعة ، فأدركت بخبرتها الفنية مدى الفن الذى سمعته وأن عزف فولفجانج الصغير لا ينبيء عن مهارة نادرة فحسب بل ينبيء فى الأهم عن عبقرية موسيقية جبارة ، لقد ضمت القيصرة الطفل المعجز إلى صدرها وطبعت على جبينه قبلة تقدير وإعجاب

وكذلك عزفت « ماريانا » عزفا أدهش الحاضرين ، وجعل الطفلين

موضع الإعجاب الشديد ، وإن كانت كفة فولفجانج قد رجحت كفة شقيقته

وعادت القيصرة إلى مداعبة الطفل فخاطبته قائلة :

— إنك ساحر صغير ، وإنها لبراعة فنية كبيرة أن تخرج بعشرة أصابع فقط كل هذه النغمات ولكن المهارة المعجزة أن يستطيع المرء عزف قطعة كاملة بأصبع واحدة

وفي غير تردد عاد الطفل فصعد إلى البيانو وأخذ يعزف بأصبع واحدة أصعب المقطوعات

وهنا جاء دور زوج القيصرة في مداعبته للطفل فقال له مازحا :

— ليست هذه مهارة كبيرة مادام الإنسان يرى المفاتيح بعينيه إنما عليك أن تتعلم العزف بالبيانو إذا غطيت المفاتيح

هذا أيضا لم يحرج الطفل العبقري فقد طلب قماشا رفيعا غطى به المفاتيح وعزف بثبات غريب لم يخطيء فيه نوتة واحدة

وهكذا قضى القوم ساعات سعيدة مع الطفلين الماهرين واستدعت القيصرة الوالد موتسارت وهنأته بطفليه وقد اهتمت بسؤاله عن مستقبلهما وعما اعتزمه بشأنهما ، ثم أهدت إلى كل من الطفلين خاتما ثمينا من الماس وكانت علامة الانصراف أن قالت لهما :

— سنلتقي مرة أخرى

لم ينقض على ذلك بضعة أيام حتى أقبلت عربة البلاط تقل الأمين الأول « البارون فون شتاوفن » وقد جاء ينبيء الوالد موتسارت أمر القيصرة فى استدعائه وطفليه

كانت وليمة قيصرية كبيرة ، وكان ممنوعا على أفراد الشعب ، حتى أكابرهم ، حضور تلك الولائم ، اللهم إلا طائفة ممتازة من الطبقة الأرستقراطية ، ولكن شاءت القيصرة أن تستثنى أسرة موتسارت فأوفدت أمينها الأول لدعوتهم لحضور الوليمة رغبة منها فى رؤية الطفلين

ثم قال الأمين الأول مخاطبا الوالد :

— ولأجل أن يحضر طفلاك فى ثياب تلائم الوليمة قد أرسلت جلالة القيصرة لك هاتين الحقيبتين وبهما ثوبان تهديهما للطفلين. وسيبدأ الحفل فى تمام الساعة السادسة ، وسأعود لاستصحابكم

وإذن فقد انصرف الأمين الأول على أن يعود ، وفتح الوالد الحقيبتين وأخرج منهما الملابس وكانت قد عملت أولا خصيصا لطفلى القيصرة : الأمير ماكسمليان والأميرة اليصابات ، وإذ كانا فى جسميهما يتناسبان مع طفلى موتسارت فقد رأت القيصرة أن تهدى تلك الملابس إليهما .

ارتدت « ماريانا » ثوبها الملكى ، وكان من الحرير الناصع المطرز بحليات غاية فى الذوق السليم ، فظهرت فيه أجمل ما تكون . أما ثياب

فولفجانج فكانت سترة ذات لون وردي وقد رصعت بأزرار من الذهب، لم يكد فولفجانج يلبسها حتى ظهر كأنه رجل من رجال الحاشية، لهذا فقد أخذ يقلد « البارون شتاوفن » الأمين الأول في مشيته وحركاته الأرستقراطية وصوته الأنفي ونبراته الصوتية التي تنم عن كبرياء شديد.

وقبيل الموعد المحدد حضر البارون « الأصيل » واصطحب أسرة موتسارت إلى القصر الملكي حيث أدخلهم إلى « الردهة الذهبية »

أى عظمة وأى أبهة احتوتها تلك الردهة ! ! كانت معدة لوليمة طعام فاخرة، وكانت جميع أدوات الأكل من الفضة الخالصة وقد رسم عليها التاج القيصري. أما حيث تجلس القيصرة فقد كانت جميع الأدوات من الذهب وكانت الردهة مضاءة بما لا يحصى من الشموع وقد انعكس ضوءها فوق تلك الأوعية الفضية والذهبية ونثرت الأزهار في كل مكان فانتشر لها عبيق جميل.

وكان يحيط بالردهة طائفة ممتازة من النبلاء، سيدات ورجالا، أختيرت ليكون لها شرف حضور هذه الوليمة لرؤية جلالة القيصرة والحاشية عند تناول الطعام

وبين هؤلاء الثلاث المشاهدين ومناضد الوليمة وقف الحرس القيصري، على رءوسهم الخوذات، يحافظون على ممر عريض. ولم يكن يسمع في كل هذه الردهة الكبيرة صوت مرتفع، إنما كان الجميع

يتكلمون همسا

وفجأة أعلن صوت النفير وترعيدات الطبلة حضور جلالة القيصرة وإذا بباب كبير يفتح ، وقد أقبلت منه « ماريا تريزا » تتهادى فى مشيتها القيصرية، يتبعها زوجها وأطفالهما وبقية الحاشية . وسار الجميع فى موكب فخم وسط هذا الممر الذى كان الحرس يحافظ عليه . وحينما تمر القيصرة ينحنى الجميع كأنما موجة من الريح أصابت عيدان القمح ، والسعيد من تختصه جلالة القيصرة بإيماءة أو ابتسامة تحية له ، ولقد حظت أسرة موتسارت بمثل هذه التحية القيصرية ولفت نظر القيصرة بصفة خاصة ملابس فولفجانج التى ارتداها

استمر عرض هذا الموكب قرابة نصف ساعة آذن بعدها صوت النفير وترعيدات الطبلة بالانتهاء ، وأخذت القيصرة وزوجها وأطفالهما أماكنهم على المائدة القيصرية ، كما امتلأت بقية المقاعد رجال الحاشية والأمراء والوزراء وقد جلسوا بعضهم يتقدم بعض درجات وفاق ما يقضى به نظام « البروتوكول »

ولقد شنفت الفرقة الموسيقية القيصرية الآذان فى أثناء الطعام، وكانت هذه أول مرة سمع فيها « فولفجانج » فرقة موسيقية كبيرة كهذه ، لذلك فقد حبس عليه عزفها جميع حواسه ، ولم يعد ينتبه إلى ما حوله إطلاقا

انتهت الوليمة ، ووقفت القيصرة وأسرتها، وصوتت النفير وضربت الطبلة إيذانا بانتهاء الحفل ، وعادت القيصرة تتبعها أسرتها وحاشيتها ، فى موكب فخم ، وقد أخذت تحي بعض مدعويها من جمهرة النبلاء المشاهدين ، على نحو ما فعلت عند قدومها .

ولم يمض على دخول القيصرة فى مقصورتها الخاصة فترة وجيزة حتي أرسلت فى طلب أسرة موتسارت إليها وهنا فى هذا الجو العائلي عزف الطفلان الماهران أمام القيصرة وأطفالها الأمراء والأميرات الصغار وكانا دائما من القيصرة موضع عطف ورعاية . وما كادا ينتهيان من العزف حتي أخذ أطفال القيصرة يتسامرون معهما فى غير كلفة فقادت أميرتان منهما فولفجانج الصغير يريانه صالات القصر

لقد خيل لفولفجانج أنه يسير فى عالم آخر ، فلقد كان كل شىء جديد فى نظره ، رياش ثمينه وتحف قيمة فى كل مكان جعلت الطفل المسكين فى دهشة صرفته عن الانتباه الى شدة نعومة خشب الأرضيه فانزلقت قدماه وفجأة سقط على وجهه . وإذا بالأميرة « اليصابات » تغرق في الضحك منه وقد وضعت منديلها الصغير المطرز أمام فمها ، بينما بادرت شقيقتها الأميرة « ماريا انطوانيت » فأسعفت الصغير وعاونته حتي نهض على قدميه

فنظر فولفجانج إلي تلك الأميرة الشقراء نظرة ملؤها الشكر وعرفان

الجميل وخاطبها قائلا :

ـــ إنك طيبة القلب وإنى من أجل ذلك سأتخذكِ زوجا لى

ولم تر الأميرة الصغيرة فى هذا القول شيئا غـير اعتيادى فأجابته بسذاجة الطفولة بقولها :

ــ إنتظر . سأسأل جلالة والدتى

وإذن فقد أقبلا معا إلى القيصرة ، وكانت مشغولة فى حديث مع الوالد موتسارت الذى جمد الدم فى عروقه وتمنى المسكين لو تبتلعه الأرض عندما سمع أن طفله طلب يد الأميرة

ولكن القيصرة ضحكت وسألت الطفل :

ــ لماذا ترغب فى زواج « ماريا انطوانيت » ؟

ــ ذلك دليل شكرى لها وعرفانى بجميلها ، فلقـد أحسنت إلى فعاونتنى على القيام من سقطتى بينما شقيقتها لم تعن بأمرى

فمسحت القيصرة على خد الطفل وهى تقول له :

ــ هذا حسن منك ، ينبغى أن يعترف المرء دائما بالجميل ، وسنفكر فى الأمر

***

لقد دعى الوالد موتسارت وطفليه إلى القصر بعد ذلك غير مرة ، وكان من نتيجة ذلك أن حذا الأشراف والأمراء حذو القيصرة فأخذوا

فى دعوتهم إلى قصورهم الواحد بعد الآخر . ولقد كان الطفلان وبخاصة قو لفجانج موضع الإعجاب والدهشة أينما ذهبوا . ولقد أغدقت على الطفل العطايا وقدمت اليه كثير من الهدايا الثمينة حتى لقد نظم فيه بعضهم الشعر

ولكن الأيام وإن صفت تأبى أن يدوم صفاؤها ، والدهر إن بسم يأبى إلا أن يكون عبوسا . فلقد شاء القدر أن لا تنتهى تلك الرحلة الجميله إلا بما يعكر صفو جمالها . فقد أصيب « فولفجانج » بالحصبة . ولئن كان قد شفى منها سريعا بفضل عناية الطبيب الخاص للنبيلة « سنزندورف » وتم شفاؤه منها تماما إلا أن هذا المرض كان سببا فى وقف الدعوات . إذ خاف الجميع العدوى

لهذا لم ير الوالد موتسارت بدا من العودة إلى وطنه فقفل راجعا مع طفليه إلى زالتسبورج فى أوائل يناير سنة ١٧٦٣

ولقد استغرقت هذه الرحلة ثلاثة شهور لا يمكن للوالد موتسارت ولا لطفليه أن ينسوها . وكانت سببا فى شهرة « طفل زالتسبورج المعجز » حتى لقد ذاعت تلك الشهرة فيما بعد الحدود الألمانية

عزفه بالكمان لأول مرة

كان لشهور الشتاء التي قضاها فولفجانج موتسارت فى فينا أعمق الأثر فى نفسه فأصبح قليل الميل الى اللعب مع لداته من الأطفال، زاهد فى ألعاب الطفولة، واستولت الموسيقى على مشاعره واستحوذت عليه وصارت شغله وأصبح شغلها، ولقد بلغ الأمر فى كثير من الأحايين أن كان يحال بينه وبين البيانو بالقوه ليكون لعزفه به حد ونهاية، وأصبح شغوفا بالموسيقى الى درجة تفوق حد الوصف لازمته طوال حياته

وفى مساء يوم من أيام الربيع، وكان فى شهر مايو، والطفل لا يزال فى السادسة من عمره، أضاف الوالد موتسارت فى منزله الموسيقى « شاختنر » وهو أحد زملائه فى فرقة الأمير المطران، وكان من أخلص أصدقاء أسرة موتسارت، وأعز الناس بها مظهرا ونخرا. كان يحب فولفجانج حبا كثيرا خلق بينهما ألفة ومودة لم تعبأ بفوارق السن والتكوين. وإن التاريخ لمدين لهذا الأستاذ بالشيء الكثير مما رواه عن طفولة صديقه الصغير، ولولاه لظل كثير من نواحى تلك الطفولة مجهولا فى بطون الغيب

أقبل على المنزل ضيف ثان هو الشاب « ونتسل » وكان عازفا بالكمان يتلقى علي الوالد موتسارت دروسه فى العزف بها، وفى التأليف الموسيقى

وصوغ الألحان ، منذ زمن بعيد . وكان هـذا الشاب يتأبط صندوق كمانه ، ويمسك فى يده مجموعة من ورق النـوتة الموسيقية احتوت على ست ثلاثيات من تأليفه لآلتين من آلات الكمان وآلة الفيولنـل وكان قد تحدد ذلك المساء لعزف تلك الثلاثيات لأول مرة

أخذ كل من الموسـيقيين الثلاثة : الضيفين وصاحب الدار ، يعـد نفسه للعزف ، وكان على « ونتـل » أن يعزف لحن الكمان الأول وأن يقوم « شاختنر » بعزف لحن الكمان الثانى . أما الوالد موتسارت فيقوم بعزف لحن الفيولنسل وقد اسـتبدل بآلة « الفيولا » تلك الآلة لعـدم توفر الأولى لديه . وما شرعوا فى تسـوية أوتار الآلة التي سيعزفون بها حتى فوجئوا بالطفل « فولفجانج » وقد أمسك بيده آلة كمان صغيرة كانت قد أهديت اليه فى أثناء رحلته بفينا ، وقد بدأ هو الآخر يسوّى أوتار تلك الآلة فدهش والده وسأله :

ـــ ماذا تريد أن تفعل بالكمان ؟

ـ أريد أن أعزف بها لحن الكمان الثانى

فضحك منه والده وقال :

ـ إنك طفل متبجح ، أنت لا تستطيم العزف بالكمان إطلاقا

ـ بلى يا والدى ، إنى أستطيع

قال الطفل ذلك بثبات القادر ، وبثبات الواثق ، وقد ظهر فى عينيه

بريق شرح

ـ لا بد أن تكون قد تعلمتهما في الحلم إذن! أرجوك يا فولفجانج ألا تعطل أعمالنا. ولا مانع عندي من بقائك معنا في الغرفة إذا كنت ترغب السماع

ـ أرجوك ياوالدي العزيز أن تسمح لي بالاشتراك معكم في عزف ثلاثي «السيد» و «شاختنر»

ـ أرجوك ألا تثير غضبي أيها الغلام، فأنت وإن شهد لك العالم بالمهارة الكبيرة في العزف بالبيانو، تجهل كل الجهل العزف بالكمان وإنك لم تدرسها مطلقا، ولا بد لمعرفتها أن تتعلم العزف بها

ـ إن عزف ألحان الكمان الثاني يا والدي لا يحتاج إلى تعليم خاص

قال الولد ذلك في صوت المصر، فعيل صبر الوالد وصرخ فيه غاضبا

ـ تلك قحة كبرى يا فولفجانج أن تقول ذلك في حضرة السيد «شاختنر»، وأنت تعلم أنه سيقوم بعزف ألحان الكمان الثاني

وإذ كان الوالد يتميز غيظا، كان «شاختنر» يتسم لقول فولفجانج ذلك بأنه شديد الحب له، كثير التعلق به، وقد عز عليه أن يرى الدمع يترقرق في عينيه، إذ لم يتعود الطفل تلك القسوة من والده فقال:

ـ سنحقق لغلامنا أمنيته، تعال الى جانبي، وحاول أن تعزف معي على أن يكون عزفك خافتا ضعيفا

وسرعان ما مسح فولفجانج الدمع عن عينيه ووقف الى جانب صديقه وقد وضع كمانه على كتفه وضعا فنيا ، وأمسك بالقوس فى يده وتهيأ للعزف هز الوالد رأسه عجبا، ولكنه أعطى الأمر بالبدء فى العزف

لم يكن هذا الثلاثى من السهولة بمكان ، ولقد أعجب « شاختنر » باللحن حتى انسجم فيه واستولى عليه فنسى العازف الصغير الواقف الى جانبه . ولكنه ، رويدا ، رويدا ، أحس وجوده فأضعف هو من عزفه قليلا قليلا ليتبين عزف الغلام . لقد كان عزفه نقيا وأصواته صافية دقيقة حتى بلغ من دهشة « شاختنر » وعجبه أن توقف تماما عن العزف ، تاركا الغلام وحده يقوم به ، وعندئذ بدأ الوالد يستمع الى عزف ولده ، حتى نهاية القطعة

فاض قلب الوالد فرحا ، وأحس فى نفسه كأنما يريد أن يركع أمام ولده مستغفرا عما فرط منه من ضعف الثقة به واستهانته بمقدرته الفنيـة ولكنه عوض ذلك بأن ضمه الى صدره وأشبعه قبلات الحنو، والإعجاب

وأخذ «شاختنر» يسائل فولفجانج :

ـ متى تعلمت ذلك أيها الغلام السريع سرعة البرق ؟

ـ عند ما يكون والدى خارج البيت

قال الطفل ذلك وهو يبتسم ابتسامة الماكر حتى قال له صديقه :

ـ تقديرا لك يا « فولفجانج » سأنزل لك الليلة عن عزف الكمان

الثانى ، وعليك أن تقوم وحدك بعزف ألحانه فى الخمس الثلاثيات الأخرى الباقية

ـ كلا إننى لا أريد أن أعزف لحن الكمان الثانى ، إنما أريد أن أعزف لحن الكمان الأول ، إذ أجد لحن الكمان الثانى سهلا بالنسبة لى

عجب الجميع لقول الطفل ولكنه كان جادا فيه ، فلم يسعهم فى هذه المرة إلا التسليم له بما طلب حتى قال له « وندتسل » مؤلف هذه القطع:

ـ تعال يا « فولفجانج » الى جانبى ، وانظر معى فى صفحة النوتة التى سأعزف منها . وهلم نبتدىء العزف

انسابت النغمات من جديد فى الحجرة ، وقام الطفل بعزف ألحان الكمان الأول . وإذ كان عزف هذه الألحان يتطلب ماهرا متقدما فى تلك الدراسة يكون فى مكنته تأدية ما يصادفه من مواضع صعبة فى الأداء فقد ظهر عجز الطفل فيها وأخطأ بعض مواضع العفق المناسبة ولكنه برغم ذلك لم يضطرب مرة واحدة بل استمر فى العزف معهم حتى النهاية

ومنذ ذلك التاريخ ابتدأ الطفل يتلقى على والده دراسة منتظمة فى العزف بآلة الكمان سرعان ما مهر فيها مهارة عجيبة خارقة

ولو كان الأمر بيده لتعلم العزف بجميع الآلات فقد كان يحبها جميعا إلا آلة النفير التى كان شديد الكراهة لسماعها ورؤيتها ، وإن كانت هذه الكراهة قد استحالت فيما بعد إلى محبة، فكان أول من وفق

لاستخدامها فى الفرق الموسيقية توفيقا حمل الموسيقار الخالد « هايدن » المسن أن يقول :

« لقد تعلمت عن موتسارت كيف أستعمل النفير فى الموضع الصحيح »

***

تقدم فولفجانج فى دراسته الموسيقية برعاية أبيه تقدما سريع الخطى بعيد المدى ونضجت عبقريته وشأت قدرته ما كان عليه فى فينا قبل بضع شهور . كذلك قطعت أخته (ماريانا) مرحلة بعيدة فى هذا الفن وتجلى نبوغها بما حمل الوالد على التفكير فى أن يكون لطفليه شهرة عالمية. ورمى ببصره إلى أبعد من البلاد الألمانية وشاء السفر بها إلى خارجها واعتزم الرحلة الى البلاد الفرنسية والانجليزية وبخاصة باريس ولندن

فى الطريق الى باريس

واذ قد اعتزم الوالد السفر بطفليه الى تلك الرحلة الطويلة فقد رأى أن يزور فى طريقه بلاط أمراء المقاطعات الألمانيـة لإمكان استعانته بما يكسبه من المال على سد نفقات هذا السفر البعيد

وإذن فقد أعد الوالد للمدة للسفر بعد أن زود نفسه بالكثير من خطابات التوصية التى حصل عليها من الأوساط الأرستقراطية بفينا. وبعد أن حصل على اجازة طويلة من المطران أمير زالتسبورج بدأ رحلته فى

يوم ٩ يونية سنة ١٧٦٣ بصحبة طفله الصغير، وكان فى السابعة من عمره، وشقيقته ماريانا

كانت مدينة « ميونخ » قبلتهم الأولى فى تلك الرحلة فوصلوا اليها بعد سفر استغرق أربعة أيام، ومهد لهم أحد النبلاء الدخول الى بلاط أمير بافاريا حيث عزف الطفلان وكانا موضع الإعجاب والتقدير

استأنفت أسرة موتسارت الرحيل إلى مدينة « أوجسبورج » مسقط رأس الوالد موتسارت فكانت موضع الحفاوة ونال الطفلان ما يستحقانه من الإكرام. وإننا لنثبت هنا تعليق إحدى الصحف وقتئذ عن تلك الزيارة قالت :

« غادرنا أول أمس المايسترو ليوبولد موتسارت وطفلاه المعجزان قاصدين مدينة « أستوتجارت » حيث يزورون بلاطها فى طريقهم الى فرنسا وانجلترا . ولقد شاء الوالد ألا يحرم مواطنيه — سكان مسقط رأسه — من التمتع بسماع طفليه الموهوبين المحبوبين الذين منّ الله عليهما باستعداد فنى خارق للعادة، واللذين عرف والدهما كيف يسهر على رعايتهما وتوجيههما توجيها فنيا صحيحا . فهو الوالد الجدير بصفة الأبوة حقا، فقد استطاع أن يجعل من ابنته وهى فى الثانية عشرة من عمرها فنانة بلغت درجة بعيدة التصديق ، ومن ابنه وهو فى السابعة من عمره معجزة العصر الحاضر والعصور الماضية »

غير أن أسرة موتسارت لم ترحل الى مدينة استوتجارت كما ذكرت

الصحيفة ، بل سافرت الى مدينة مجاورة لها هي « لودفجسبورج » حيث كان أمير مقاطعة « ورتمبورج » فى مصيفه

وإذ كان رئيس الفرقة الموسيقية لهذا الأمير ويدعى « يومبللى » فنانا إيطاليا ، لا يعترف إلا بالفنانين من أبناء وطنه ، ويدفع جهد طاقته الفنانين الألمان عن بلاط أميره حتى لا يكون لهم نصيب فى الظهور فيه إطلاقا فقد نجح فى عرقلة ظهور الطفلين موتسارت وعدم تمكينهما من العزف فى البلاط

ورحلت أسرة موتسارت إلى مدينة « هيدلبرج » حيث عزف فولفجانج بآلة الأرغن فى الكنيسة المقدسة ولقد بلغ من إعجازه فى العزف وإعجاب الناس به ، أن نقشوا على تلك الآلة كلمتى « للذكرى الخالدة »

كذلك كان نجاح الطفلين عظيما ، واستقبالهما رائعا باهرا فى مدن « مانهايم » و « كوبلنز » و « بون » و « آخن » (إكس لاشابل) فقد كانوا فى هذه المدن جميعا موضع الحفاوة البالغة والإكرام الفائق ، وغمرتهم الهدايا الثمينة التى قدمت إلى الطفلين ، حتى لقد كتب الوالد موتسارت إلى زوجه فى « زالتسبورج » يقول :

« إننا نستطيع أن نفتتح من هذه الهدايا متجرا عاما »

أما من الناحية المالية فقد كسبت أسرة موتسارت من هذه الحفلات الموسيقية التى أقامتها فى الطريق مالا وافرا بقى منه قبل بلوغها باريس

مبلغ ١٠٨٠ جولدن (ما يقرب من المائة جنيه) بعد جميع مصاريف الطريق ونفقاته

ولقد كان الوالد موتسارت رجلا محنكا ذا خبرة بالحياة فإنه كما عرف أن يفيد طفليه من هذه الخبرة فقد عرف كذلك كيف يجتذب الجماهير إلى مواهب هذين الطفلين ، وكيف يجمل من برامج حفلاتهما ما يترك الجميع فى دهشة وإعجاب ، سواء فى ذلك طائفة المجيدين فهم هذا الفن أو غيرهم ممن تسحرهم مظاهر المهارة فى العزف مع صغر السن

وإننا لنسوق فيما يلى مثلا مما نشرته صحيفة بمدينة فرنكفورت فى ٣٠ أغسطس سنة ١٧٦٣ حيث قالت :

« إن الاعجاب الشامل الذى لم يسبق أن رأى الناس مثله ، ولا سمعوا به من مهارة طفلى زالتسبورج الموهوبين قد دعا إلى استعادة البرنامج جميعه ثلاث مرات بدلا من مرة واحدة، وسبب ذلك الاعجاب العام هو ما تصادفه طائفة المثقفين فى الموسيقى الذين يقدرون فن هذين الطفلين مما يشبع نهمهم الفنى من الموسيقى الساحرة الجيدة . واليوم ستكون آخر حفلة تقيمها عندنا تلك الأسرة فى تمام الساعة السادسة ، تحييها الفتاة الصغيرة التى لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها وشقيقها الغلام الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، وستكون الحفلة غير مقصورة على العزف بالبيانو ،لمقطوعات خالدة قيمة لأعلام الموسيقيين ، إنما سيقوم

الغلام كذلك يعزف قطعة « كونسرت » بآلة الكمان، كما أنه سيعزف بالبيانو وقد غطيت مفاتيحه بقطعة من القماش تحجب رؤيتها فيعزف عليها بإجادة تامة كأنها غير محجوبة ، وفى استطاعته أن يقلد على البيانو كل صوت يطلب إليه تقليده كأصوات الأجراس ، والزجاج ، والساعات وغير ذلك . وسيعزف بآلة الأرغن التي تختلف فى عزفها عن البيانو اختلافا بينا ، مقطوعات من مخيلته وإنشائه »

ولقد يتضح من هذا القول الطريف كيف كان الوالد موتسارت يفهم كيفية الإعلان عن طفليه وعن مهارتهما حتى لقد استغل الدعاية التي داعب بها فرانس زوج القيصرة فى فينا الغلام « فولفجانج » ، فبعد أن كانت مجرد دعابة ، جعلها الوالد فى إعلاناته إعجازا فنيا . وإذ كان الوالد فى حاجة إلى كسب المال ، وكانت طائفة المثقفين فى الموسيقى قليلة غير كافية لملء مقاعد المكان فقد اضطر إلى مثل هذا العرض البهلوانى لإمكان اجتذاب الجماهير

رحلته إلى باريس

فى ١٨ من نوفمبر عام ١٧٦٣ وصلت أسرة موتسارت إلى العاصمة الفرنسية . وكانت باريس وقتئذ عروس أوربا تشئو جميع حواضرها أبهة وفخامة ، رغم ما يتخلل أحياءها من الطرقات الضيقة الملتوية غير الممهدة . التي يعوزها الشيء الكثير من النظافة ، وكانت تتوسط شوارعها قنوات لتصريف المياه ، ولم يكن على جوانب تلك الشوارع أرصفة كما هو الحال الآن ، فكانت العربات فى سيرها تكاد تلمس جدر المنازل لدرجة يتعرض معها المارة لأخطارها

وكان الوالد موتسارت يحمل معه توصية حارة من النبيلة « اركو » بزالتسبورج إلى زوج ابنتها النبيل « أيك » سفير بافاريا فى فرنسا ، فأحسن استقبال أسرة موتسارت في بيته وأنزلهم فيه ضيوفا عليه

وكان أول ما قام به الوالد موتسارت أن عرف نفسه إلى طائفة كبيرة من النبلاء كان يحمل إليهم خطابات توصية ، أمثال النبيل « كوبنزل » والبرنس « كونتيه » والأميرة « إيكوبون » والمركيزة « دورفور » وغيرهم

وكان فرح الجميع بالطفلين الفنانين عظيما ، ولذاذتهم بالاستماع إليهما والتمتع بموسيقاهما بالغا . إلا أن الأمر بالأسف لم يتمد هذا

الفرح ، وذلك الاستمتاع ، ولم يستطع أحد من أولئك جميعا أن يسعف الوالد « موتسارت » فيشق له طريقا للدخول فى البلاط الفرنسى

ولقد كدح الوالد فكره يتلمس معرفة أسباب هذا الإغضاء من ناحية البلاط حتى لقد خاف أن تضيع عليه ثمرة تلك الرحلة الطويلة إلى مدينة السين (باريس) التى علق عليها آمالا كبارا وبني عليها قصورا من الذهب

والواقع أنه لم يكن سبب لذلك الحرمان إلا بساطة الوالد وعدم معرفته لأسرار البلاط ، ذلك بأن الكلمة العليا في بلاط الملك « لويس الخامس عشر » كانت للمركيزة « بومبادور » صاحبة السلطة المطلقة فيه حتي لتعلو كلمتها كلمة الملكة نفسها

وكان كل أمر يصل الى البلاط عن غير طريقها مقضيا عليه بالفشل المحقق والسقوط المحتم

وكان بين كتب التوصية التى يحملها معه الوالد موتسارت كتاب من زوجة تاجر من مدينة (فرنكفورت) بألمانيا الى البارون « جريم » ولكن الوالد لم يعلق على هذه التوصية أهمية تذكر ذلك بأن البارون لم يكن فى نظره إلا شخصية هينة وهو فوق ذلك ألمانى الجنس ، وماذا عكن أن تمهد له مثل هذه الشخصية من أمور عجز عن النجاح فيها كل من اتصل بهم من النبلاء والأمراء وغيرهم من أشراف الفرنسيين ذوى

غير أن الوالد موتسارت كان جد مخطىء فى اعتقاده ، فإن البارون « جريم » كان الشخصية التى فى استطاعتها إفادته فهو وإن كان ألمانيا فقد استوطن باريس منذ اثنى عشر عاما ، وكان يعد من أعلام رجال الطبقة الأولى من الناحية الاجتماعية ، ومن أظهر أعضاء هيئة كبار العلماء الذين أختيروا لإخراج دائرة معارف عامة تحصر فيها جميع علوم البشر. وكانت هذه الهيئة متمتعة فى كل فرنسا باحترام خاص ونفوذ روحى شديد ، حتي كانت تخشاها أعلى طبقة فى البلاط ، وكثيرا ما وجه هؤلاء العلماء فى كتاباتهم أشد أنواع التهكم ، وقوارص النقد . إلى البلاط وما ينغمس فيه من بذخ وإسراف وإستهتار بالتقاليد

بل لقد كان فى البلاط شخصيات كبيرة متصلة اتصالا وثيقا بهؤلاء العلماء سيما كبيرات سيدات البلاط ، وهن اللاتى استخدم البارون « جريم » نفوذهن فى تيسير دخول أسرة موتسارت إليه ، ذلك بأنه قدمها إلى شخصيات بارزة من أولئك النبلاء كان لهن الحظوة الأولى عند المركيزة « بومبادور »

وهكذا وفقت أسرة موتسارت إلى شرف الدعوة للعزف أمام المركيزة « بومبادور » ثم أمام الأسرة المالكة

ولقد حدث فى أثناء مقابلة أسرة موتسارت للمركيزة أن أجلست

الطفل (فولفجانج) إلى منضدة أمامها ، وأخذت تداعبه مداعبة لم تخل من كبرياء عرفت به . وإذ كان الغلام مدللا من جميع من تعرف إليهن من السيدات فقد أحنى رأسه للمركيزة — كعادته — يريد أن تقبله ، ولكن المركيزة المتكبرة ، برغم أن والدها كان موظفا عسكريا بسيطا أشاحت بوجهها عنه مبالغة في التأبى

ولما كان الطفل الفنان لم يعتد تلك المعاملة ، ولم يسبق له مثلها فقد قال غاضبا : من تكون هذه التي ترفض تقبيلى ؟ لقد قبلتنى القيصرة نفسها

وكان من حسن حظ الطفل أن المركيزة لم تفهم كلمة واحدة من لهجته الألمانية كما أن من كان يعرف تلك اللغة من حاشيتها تغاضى عن ترجمة مثل هذه العبارة الجارحة فانتهى الأمر بسلام دون أن يترك أثرا سيئا

***

ولقد أكرم أعضاء الأسرة المالكة وفادة أسرة موتسارت سيما الطفل (فولفجانج) فإن الملكة وهى ابنة (ستانسلاوس لتسنسكى) ملك بولندا ، والأميرات كن يتكلمن جميعا اللغة الألمانية وكن كثير التحبب إلى الطفل العبقرى ، حتى لقد كن يداعبنه فى الطرقات العامة بباريس إذا صادفهن فيها مما أثار دهشة الشعب وعجبه

ولقد كان لنجاح الطفلين في بلاط (فارساى) أثر كبير فى الحفلات العامة التى كانا هما وأبوهما ، يقيمونها فى باريس فصار الإقبال عليها شديدا

وكذلك تسابق النبلاء والأشراف والأمراء ، في دعوة الطفلين الي حفلات خاصة وأهدوا إليهما كثيرا من الهدايا والطرف فاض بها العدد حتي خصصت لها النبيلة «أيك» التي كانت أسرة موتسارت في ضيافتها حجرة في قصرها ، وكان بين تلك الهدايا هدية قدمها البارون « بوزا وهو ممن يقدرون الفن الموسيقي ويفهمونه حق الفهم

كانت هديته كتاب « أغاني جيلرت » وقد فرح بها « فولفجانج » حتي لكان يفضلها علي بقية الهدايا . ولقد صدر هذا البارون الكتاب بالإهداء التالي

« تقبل أيها المعجز يا ابن السبع سنوات ، هذا الكتاب من أخ وصديق . أكثر من قراءته وتذوق أغانيه السماوية واخلع عليها في ساعات تجليك قسطا من انسجامك الصوتي الذي لا يباري ، قسطا يزري بمن يحتقر الأديان ، اقرأها واستمدها وصل لله »

ولئن كان « فولفجانج » من صغر السن بحيث لا يستطيع إدراك ما ينطوي عليه هذا الإهداء لقد قام والده بإفهامه مراميه وأوضح له ألم البارون مما كان متفشيا في باريس إذ ذاك من الإلحاد والتحلل من الأديان

وكان الوالد يسبح في بحر من السعادة لنجاح طفليه ! وما صادفاه من شهرة ، وإذ كان رجلا عمليا في الحياة فقد عرف كيف يجمع الى الشهرة ، كسب المال الوفير والثروة الواسعة

ولقد قام السيد « كارمونتيلي » وكان محبا للموسيقى ، مجيدا لفن الرسم بحفر صورة موفقة لفولفجانج وهو يعزف بالبيانو وقد وقف والده خلفه يعزف بالكمان ، وأخته « ماريانا » تغني فكانت صورة نفسية ذاعت واشتهرت

ولاقت « ماريانا » أيضا ، إلي جانب شقيقها الصغير نجاحا كبيرا حتى لقد كانت تقوم بعزف أصعب المقطوعات ، وبلغ الأمر بالموسيقار « شورت » وهو ألماني الجنس ، وقد اشتهر وقتئذ بتآليفه المعقـــدة ، الصعبة الأداء أن تميز غيظا عند ما سمع مقطوعاته التي يفخر بصعــوبة أدائها تقوم بعزفها طفلة في الثانية عشرة من عمرها ببساطة وسهولة

وليس أدل على براعة الطفل فولفجانج وعبقريته الفذة مما كتبه البارون « جريم » وقتئذ إلي صديق له من أمراء ألمانيا يصف فيه الطفل فيقول :

« بعيد عن التصديق أن يرى الإنسان مثل هذا الطفل يجلس ساعة كاملة يعزف من إنشائه ومخيلته ، تسعفه في ذلك عبقريته بالمبتدع المبتكر من الألحان الساحرة التي يصوغها بذوقه السليم ويسوقها أفكارا متلاحقة دون خلط ولا اضطراب وإني أعتقد أن أكثر الأساتذة مرانا من رؤساء الفرق الموسيقية لينقصهم تلك المعرفة العميقة بعلم انسجام الأصوات (الهارموني) والتصوير اللذين يقوم الطفل بهما بالسليقة ،

فيظهر نتاجه دائما صحيحا موفقا

إنه يكتب الموسيقى ويبدع ألحانها بسهولة معجزة دون أن يقترب من البيانو أو آلة ليجرب لحنا منها . ولقد أعطى قطعة رقص طلب إليه وضع نغمات « الباص » لها ، فأمسك بالريشة وكتب ما طلب منه فى سهولة عجيبة دون أن يركن إلى الاستعانة بالبيانو

ولقد حدث أن سألته إحدى السيدات أخيرا عما إذا كان فى استطاعته مصاحبتها بالبيانو إذا غنت قطعة إيطالية تحفظها بالسماع .

ولم تكد تبدأ السيدة الغناء حتى كان الطفل يتابعها محاولا إيجاد هذه النغمات المتوافقة بصورة صحيحة دون أن يعرف ما سيعقبها ، وكان الطفل على غير علم سابق بالمقطوعة . وما كادت تنتهى السيدة من غنائها حتى طلب إليها إعادتها مرة أخرى . وهنا صاحبها بالبيانو ، بنغمات منسجمة متوافقة ، لا بيده اليمنى فقط إنما بيديه الاثنتين دون أن يخطىء مرة واحدة . بل لقد طلب إلى السيدة أن تغنى هذه القطعة أكثر من عشرة مرات كان فى كل مرة منها يتابعها بلون خاص جديد من الهارمونى المصاحبة يخلع على القطعة طابعا جديدا

وإنى لا أكتمك أن إعجاز هذا الطفل كاد يذهب بعقلى بل لقد أصبحت الآن أدرك تماما كيف يشق على المرء أن يصون نفسه من الجنون أمام شىء معجز . »

ولقد تمددت دعوة أسرة موتسارت إلى البلاط الفرنسى ، وكان « فولفجانج » يحرز فى كل مرة نصرا مبينا لا فى العزف بالبيانو فقط بل وفى آلة الأرغن أيضا

وشاء الله ألا يقتصر إعجاز هـذا الطفل الصغير ، فى باريس ، على العزف بالآلات ، بل شاء أن يظهره للعالم موسيقيا ملحنا ومبتكرا مبدعا فقدم لباريس أربع مقطوعات من تأليفه من نوع « الســوناته » للبيانو بمصاحبة الكمان ، وقد طبعت هذه المقطوعات وكتب على غلافها إن عمر مؤلفها سبع سنوات وقد كتب إهداء اثنتين منها للأميرة « فيكتوريا » والأخرتين للنبيلة « تسيه » اعترافا بما قدمناه لأسرة موتسارت من جميل وحسن رعاية . وكانت هـذه المقطوعات الأربع أول ما ظهر للعـالم من مؤلفات هذا الطفل فأحدث ظهورها ضجة هائلة فى الصحـافة الباريسية

واعتزمت أسرة « موتسارت » مغادرة العاصمة الفرنسية بعد ما لاقته فيها من حسن الوفادة والإكرام ، إلى العاصمة الإنجليزية .
وحسبنا من وصف استقبال أسرة « موتسارت » في بلاط الملك «جورج الثالث » وزوجته الملكة أن نورد ما سطره الوالد « موتسارت » في خطاب بعث به إلى زوجه بزالتسبورج وصفا لتلك الحفاوة قال :

« إن الإكرام الذى تلقانا به جلالة الملك والملكة يعجز أبلغ الكتاب عن وصفه ، فلقد زاد فيض التكريم حتى كان من الصعب علينا أن نتخيل أنهما ملك انجلترا وملكتها لقد أصبنا فى بلاط جميع البلاد تكريما تعدى حد الوصف ، ولكن استقبالنا هنا فاق الجميع »

أقامت أسرة « موتسارت » في انجلترا عاما كاملا أحيت فيه كثيرا من الحفلات الموسيقية فى لندن . ونزحت فى الصيف إلى المصايف حيث ينتقل إليها أشراف القوم وعليتهم .

ومنذ أن ظهر « لفولفجانج » فى باريس أول مطبوعاته الموسيقية ومرجل الابتداع يغلى فى نفسه . ولكنه لم يشأ أن يقف به الأمر فى هذه الناحية على التأليف لآلة البيانو بل بدأ يكتب الألحان لمجموعة آلات الفرقة الموسيقية . وكانت هذه المقطوعات تعزف فى حفلاته فلاقت من

إعجاب الجماهير ما جعل مهارته فى العزف بالبيانو عندهم فى الدرجة الثانية

ولقد فوجىء الجميع بهذه العبقرية الفذة التي بدت تشق طريقها فى فجر حياتها . وشهد له بالتفوق جميع الموسيقيين المقيمين في « لندن » فى ذلك الوقت ، وكان من بينهم « يوحنا كرستيان باخ » رئيس إحدى الفرق الموسيقية وأحد أنجال الموسيقار الخالد العظيم « يوحنا سباستيان باخ »

ولقد كتب الوالد « موتسارت » إلى زوجه يقول :

« إن طفلنا (فولفجانج) ليعرف وهو فى الثامنة من عمره كل ما يمكن أن يعرفه رجل فى الأربعين ، ويمكن أن أقول لك إن درجة معرفته عند مغادرتنا (زالتسبورج) ليست إلا خيالا بالنسبة لمعرفته الآن »

العودة الى الوطن

وفى صيف عام ١٧٦٥ غادرت أسرة « موتسارت » انجلترا قاصدة (هولاندا) بناء على طلب السفير الهولندى فى بلاط أمير (أورليان)

وفى الطريق ، فى مدينة (ليل) بفرنسا مرض الوالد (موتسارت) وطفله (فولفجانج) ولم يقويا على استئناف الرحلة إلا بعد أربعة أسابيع وما كادت تلك الأسرة تصل مدينة (هاج) حتى أصيبت (ماريانا) بحمى شديدة هددت حياتها بالخطر وأشرفت بها على الموت فأسعفها أميرة (أورليان) بطبيبها الخاص ، وما كادت تنجو من الخطر بمعجزة حتى تسرب المرض نفسه الى شقيقها (فولفجانج) فقاسى منه ما قاساه ثم كتب الله له السلامة واسترد الطفلان صحتهما فاستأنفا حياتهما الفنية من جديد وأحييا كثيرا من الحفلات فى (هاج) و (أمستردام) و (أنتورب) وغيرها من مدن (هولندا)

ثم اعتزمت أسرة موتسارت زيارة البلاد السويسرية فيممت نحوها بعد أن تخلفت فى طريقها بعض الوقت فى باريس حيث أحييت حفلات أخرى فى البلاط الملكى وعند بعض الأشراف والنبلاء

وسافرت الأسرة من باريس الى (ديجون) و (ليون) و (برن) و (زيوريخ) فكانت (سويسرا) آخر الأقطار الأجنبية فى تلك الرحلة

الفنية الموفقه التى قامت بها أسرة (موتسارت)

ثم عادت الأسرة إلي وطنها بعد أن مرت فى طريقها بالبلاط البافارى فى مدينة ميونخ ثم سافرت منها الى مدينتهم (زالتسبورج) فبلغتها فى نهاية نوفمبر سنه ١٧٦٦

وقد استغرقت تلك الرحلة الفنية عامين و نصف عام تقريبا عادت بعدها أسرة موتسارت بعد أن توجت في كل أوربا بأكاليل النصر وصار لها من الشهرة العالمية أكبر نصيب ، لتعيش فى مدينة (زالتسبورج) الصغيرة

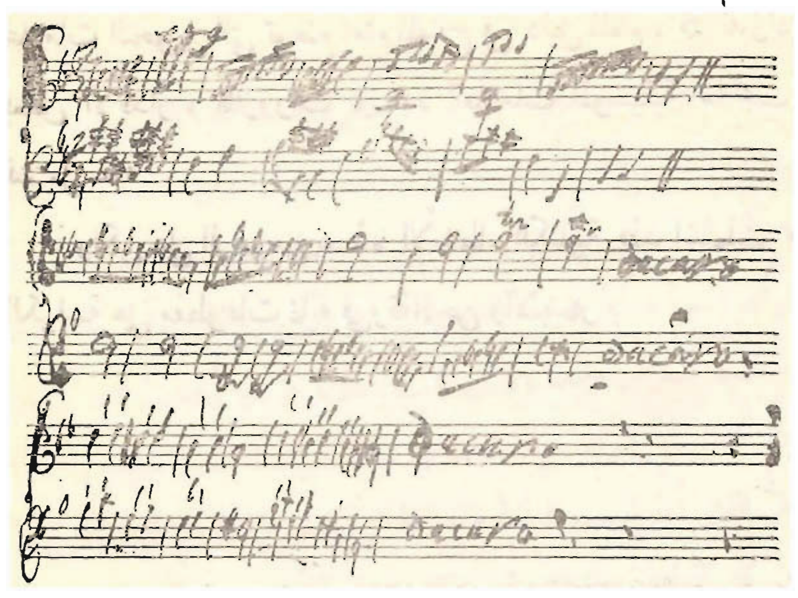
أثر من مؤلفاته

في عام ١٧٦٤ حيث كانت أسرة موتسارت في لندن وكان (فولفجانج) في الثامنة من عمره، أهدى الوالد اليه كراسة لكتابة النوتة الموسيقية ولقد مرض الوالد في لندن في ذلك العام مرضا اضطره لاعتزال العمل ردحا من الوقت انتجاعا للصحة. فاغتنم (فولفجانج) الفرصة، وأخذ يؤلف في أوقات فراغه مقطوعات موسيقية يدونها في تلك الكراسة الصغيرة التي كتب والده علي غلافها «فولفجانج موتسارت لندن ١٧٦٤» وهذه الكراسة قد احتفظ بها حتى اليوم في دار الكتب الحكومية ببرلين وتعد من أثمن نفائس التاريخ الموسيقى

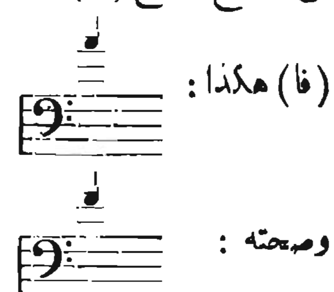
وتشتمل هـذه الكراسة على ٤٣ قطعة من مختلف أنواع التأليف الموسيقى، وكانت كتابة (فولفجانج) فيها لغاية صفحة ٦٢ بالقلم الرصاص وبعد ذلك بالمداد، وتظهر كتابته في القسم الأخير وسطا بين النظافة وعدمها. وتلك المقطوعات في غالبيتها مؤلفة للبيانو ولكن من بينها مقطوعات لآلة الأرغن وأخرى لآلات الفرق الموسيقية

ومن المحتمل ألا يكون الوالد قد اطلع على محتويات هذه الكراسة والمحقق أنه لم يصحح مقطوعاتها إذ ورد فيها كثير من أخطاء الكتابة في النوتة، وإننا لننشر فيما يلي بالزونكرغراف صورة إحدي المقطوعات

وهى رقم ٣٦ فى الكراسة :



ويرى فى نوتة اليد اليسرى انه يخطىء فى كتابة الخطوط الإضافية فى مدرج مفتاح (فا) ذلك لأنه كما يرى فى الصورة قد كتب صوت (فا) هكذا :



وصحته :

وقد وقع هذا الخطأ بتلك المقطوعة ثمانى مرات متوالية

ولم يكن مثل هـذا الخطأ الكتابى مقصورا على تلك المقطوعة بل وقع مثيله فى غـيرها من مقطوعات تلك الكراسة . ولم يخطىء فقط فى

عدد الخطوط الإضافية لكتابة اليد اليسرى وإنما أخطأ أحيانا فى عدد علامات التحويل التي توضع أمام المفتاح فى دليل المقام ، كما أنه زاد فى بعض الأقدار « المازورات » عدد العلامات الموسيقية عما يجب أن تشتمل عليه

ولكن على الرغم من هـذه الأخطاء الكتابية فقد اشتملت هذه الكراسة على مقطوعات غاية فى رقة اللحن والابتكار

بين أعدائه وحاسديه

كان الوالد موتسارت كثير الاضطراب ، شديد الفزع عند ما عاد إلى « زالتسبورج » وتأهب لمقابلة الأمير المطران يعلن حضوره ، وذلك بأنه كان قد تخطى الأجازة المرخص له بها ، وتوقع لذلك أن يقابله المطران أسوأ مقابلة فوطد النفس على الاحتمال . وكان الأمر كما توقعه إذ استقبله المطران عابسا ، وإن كانت أسارير وجهه أخذت تنبسط شيئا فشيئا كلما توغل الوالد موتسارت في سرد حوادث قصة طفليه والنجاح الباهر الذى أحرازه ، والحفاوة البالغة التى استقبلا بها فى كل مكان .

ولئن كان المطران قد سمع قبل ذلك بتلك الأخبار فقد كان لسماعها من شفتى الوالد « موتسارت » أثر بالغ

وكان المنتظر بعد تلك الشهرة البالغة التى لاقاها الطفلان ، وبخاصة فولفجانج والتقدير الخارق لعبقريته الفذة ، والحظوة التي نالها لدى الملوك والأمراء ، والأشراف والنبلاء ، فى معظم الأقطار الأوربية ، أن تكون سبل الحياة الفنية أما مهما فى « زالتسبورج » ممهدة ، وأن يجدا من أهلها هذا التقدير وذلك الإكرام . ولكن كما هو مشهور معروف « لا يطاع نبي فى قومه » فلقد كانت هناك طائفة من الموسيقيين فى تلك المدينة اشتد حقدها على الوالد « موتسارت » وعظم حسدها له وتفاقمت

نقمها عليه . كانت المطبوعات التى ظهرت من تأليف « فولفجانج » فى لندن وباريس ترسل أول فأول الى زالتسبورج وقد رآها القوم فعرفوا فيها فنا رائعا ، ونتاجا فذا ، ولكن هل يمكن أن يكون مثل هـذا النتاج ثمرة من ثمرات طفل فى الثامنة من عمره ؟ إنه نتاج يحتاج لدراسة سنين طويلة وتجارب عدة . إذن لا بد أن يكون ذلك مستحيلا . وإذن فلا بد أن يكون للوالد موتسارت نصيب الأسد فى تلك المؤلفات فهو الذى أبدعها ، ونسبها الى طفله رغبة منه فى اجتذاب العالم إليه ، ولتكون تلك الشهرة غير محبوسة على العزف فحسب بل تتعداه الى التأليف أيضا فى هذه السن المبكرة

هكذا فكرت عقول تلك الطائفة من الموسيقيين الذين يحقدون على الوالد « موتسارت » وطفليه ، وتناقل الناس فى زالتسبورج حديث هذه الشائعة . وإذ كان مصدرها أناسا فنيين ذوى خبرة بالفن الموسيقى فقد صادفت قبولا من الجمهور ولاقت آذانا مصغية فى الناس

وبلغ هذا القول أسماع المطران فاستدعى فولفجانج إليه ووضع أمامه قصيدة دينية ، من نوع « الأوراتوريوم » وطلب إليه تلحينها بأصوات متعددة مختلفة للغناء والآلات . وضمانا لعدم اتصال أحد بالطفل فى أثناء عمله حبسه وحده فى غرفة من غرف القصر لا يتصل به فيها أحد إلا خادم يثق به المطران ليقدم للطفل ما يحتاج إليه من غذاء

وضروريات وقد تحدد لإنجاز هذا العمل ثمانية أيام . ولكن فولفجانج أتم التلحين فى نصف هـذا الزمن ، وجاء عمله تحفة فنيـة ، وإبداعا فى التأليف لم يكن للناس عهد به . وقد بز مصنفاته بباريس ولندن ، ونال من التوفيق ما قضى على كل ما كان يشاع عنه في « زالتسبورج »

اغتبط المطران بهذه النتيجة اغتباطا جعله يرخص للوالد موتسارت من جديد بناء على طلبه فى اجازة فى نهاية العام يستأنف فيها رحلته الى فينا هو وطفلاه

وكان قد تقرر أن يقام فى فينا مهرجان كبير لمناسبة زفاف الأميرة « ماريا كارولينا » على « فـردناند » ملك « نابولي » وقـد رأى الوالد موتسارت فى تلك المناسبة فرصة سانحة لظهور طفليه أمام طبقة ممتازة تستطيع أن تقدر التقدم الفني الذي أحرزاه ، وبخاصة فولفجانج

كان هذا أمل الوالد ولكن شاءت المقادير مناوأته وجاءت الأيام بغير ما كان ينتظر ويشتهى ، ذلك بأن وباء الجدرى قد انتشر فى تلك المدينة القيصرية الجميلة ، حتى كانت الأميرة «جوزيفينا» من أوليات ضحايا هذا الوباء . وهاجر كثير من علية القوم إلى جهات نائية اتقـاء لهذا المرض . وقد رأى الوالد موتسارت أن يحذو حـذوهم ، فانتقل بطفليه إلى مدينة « أولمتس » وان كان ذلك لم يغنه شيئا فقد أصيبت « ماريانا » ثم « فولفجانج » وظل الاثنان يرزحان تحت أعباء هـذا

المرض مدة طويلة .

ولما عاد ثانية إلى فينا فى يناير سنة ١٧٦٨ ، وكان الطفل قد بلغ الأثنى عشر عاما ، كان الناس لا نزالون يعرضون عن الطفلين خشية العدوى إذ كانوا لا نزالون يخافون هذا المرض خوفا شديدا . وعلاوة على ذلك فقد تغير الحال فى البلاط النمساوى . ولئن ظلت القيصرة ماريا تريزا تحفظ الود لأسرة موتسارت إلا أن زوجها فرانس الأول كان قد توفى وخلفه « جوزيف الثانى » وهذا الأخير كان حاكما محبا للجمال الفنى ، مولعا بالموسيقى ولكنه رغم ذلك كان غاية في الاقتصاد ، شحيحا فى الصرف على الفنون

وكان طبيعيا أن تحذو الطبقة الراقية من الأشراف والنبلاء حذو البلاط ، والناس على دين ملوكهم

وهكذا جاءت الظروف على غير ما تشتهى أسرة موتسارت وجرت المقادير بغير ما تتمناه

على أن ذلك لم يمنع القيصر « جوزيف الثانى » من الالتفات إلى عبقرية فولفجانج رغبة فى أن يقوم الطفل بتلحين أوبرا هزلية يكون هو على رأس فرقتها الموسيقية فى أثناء أدائها . وتحقيقا لتلك الرغبة تعاقد مع الطفل فعلا (افليجيو) متعهد مسرح الأوبرا بفينا ، وقد توقع كسبا وافرا ودخلا كبيرا بالنسبة لإقبال الجمهور على رؤية طفل في الثانية

عشرة من عمره يلحن الأوبرا ويقود بعصاه الصغيرة فرقتها الموسيقية الكبيرة وما يتبعها فى المسرح من عدد وافر من المغنين والمغنيات

وكان من الطبيعى أن تكون تلك الأوبرا إيطالية ، كبقية الأوبرات فى ذلك الوقت، فكتبها له الشاعر الإيطالى « لويجى كولتلليني » وقد أسماها بالإيطالية La finta semplice ومعناها « المتغابى »

وأقبل فولفجانج على عمله فى التلحين أكثر ما يكون نشاطا ومثابرة إلا أن كثيرا من الشخصيات الموسيقية التى كانت تقيم وتنشد فى فينا أحسوا بأن عبقرية هذا الطفل ستطغى عليهم ، وتطفىء شهرتهم جميعا لذلك وطدوا العزم على مناهضة هذا الطفل ، والوقوف فى سبيل مشاريعه وتعطيلها مهما كلفهم الأمر ، وصادفهم من صعاب ، وإذن فلا بد من عدم ظهور الأوبرا التى يقوم بتلحينها إطلاقا . وانضم إلى هؤلاء نفر كبير من المغنين والمغنيات وعازفى فرقة دار الأوبرا وغيرهم ممن حرضوا على مناهضته

انتهى فولفجانج من تلحين الأوبرا التى عهد إليه تلحينها ولكن « افاليجيو » متعهد المسرح أخذ يتباطأ فى إظهارها ، وقد شعر بما يدبر لها فى الخفاء ، وما ينصب لها من حبائل وشراك جعلته هو نفسه يخاف سقوطها ، لهذا أخذ يتعمد تأجيل التجارب والاستعدادات الأخرى من حين لحين

ونفذ صبر الوالد موتسارت بعد طول الأناة وشق عليه أن يرى

مجهود ولده يضيع هباء فأخذ يهدد ويتوعد ثم تقدم بشكاية الى القيصر ضد متعهد المسرح ولكن الشكاية لم تجديه نفعا ونجح المتآمرون فلم تظهر الأوبرا إطلاقا

وأراد القيصر أن يعوض الطفل بعض ما أصابه من خيبة أمل فطلب اليه تلحين قداس دينى كبير بمناسبة تدشين كنيسة وقام الطفل بتنفيذ تلك الرغبة القيصرية أبرع ما يكون وأديت القطعة في يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٧٦٨ بحضور جميع رجال الحاشية ، وقد ترأس الطفل الفرقة وأمسك بعصاه الصغيره فكان كالأستاذ المسن الذى قضى السنين الطوال في حنكة ودربة

كان هذا كل نجاحه الفنى بفينا في هذه الرحلة ولكن شاء الله أن يكون لهذا النجاح الفريد نتيجة سارة ، ذلك بأنه ما كاد يعود من رحلته هذه إلى زالتسبورج حتى أسند إليه المطران رآسة الفرقة الموسيقية فكان هذا تقديرا ساميا لعبقرية الطفل الذى لم يكد يدخل فى عامه الثالث عشر

التفكير فى الرحلة الى ايطاليا

مضى عام كامل على أسرة موتسارت فى مدينة زالتسبورج قضاها فولفجانج فى دراسة موسيقية شاقة . وما كاد ذلك العام ينقضى حتى

نبتت فى رأس الوالد فكرة جديدة سرعان ما نضجت وأخذ يسمى لتنفيذها ذلك بأن الأوبرا التى قام ولده بتلحينها فى فينـا ، وإن كان لم يكتب لها الظهور على المسرح فقد تبين الوالد فى موسيقاها عظيم استمداد فولفجانج لتلحين المسرحيات ، وأن عبقريته الموسيقية يمكن أن يكون لها فى تلك الناحية أحسن النتاج . وقد أقره على هذا الرأى جميع محبيه من المشهود لهم بسمو الذوق والمعرفة الموسيقية

وإذ كان من المحتم على كل من يرغب أن يذاع صيته فى عالم التلحين المسرحى (الأوبرا) أن يولى وجهه شطر إيطاليا ويتتلمذ على أساتذة الفن فيها لأن تلك البلاد كانت القابضة على صولجان هذا الفن وصاحبة السلطان فيه حتى شأت فيه جميع الأقطار والبلدان . وكانت البـلاد الايطالية مـلأى بالمقاطعات التي لكل منها بلاط خاص ، كما أن حكامها وأمراءها ونبلاءها كانوا يتسابقون جميعا فى إقامة المهرجانات الموسيقية ، وإحياء حفلات «الكرنفال» والفكاهة . وكانت الأوبرا خير ما يقدم في تلك الحفلات ، إذ امتزج فيها فن الموسيقى بالفن المسرحى . وكانت هـــذه المهرجانات والحفلات تقام في أوقات معينة من العام يطلق عليها بالايطالية Stagione ومعناها الموسم . وكان الحكام والأمراء والنبلاء والأشراف يتسابقون فى دعوة الموسيقيين والشعراء والملحنين والمغنين متنافسين فى إظهار نتاج فنى جـــديد . لذلك كانت هناك دائما فرصة سانحة لظهور

العبقريات الموسيقية الفذة ، ومجال واسع لعرض نتاج تلك العبقريات

وإذ كانت الأوبرا الايطالية تعتبر فى المانيا نموذجا تحتذى فقد تحتم على كل ألمانى يود أن يكون النجاح حليفه فى هذا الفن، وأن يصيب فيه شهرة عالمية ، أن يتتلمذ على ايطاليا . ولقد قطف الموسيقار الألمانى « هندل » وزميله «جلوك» أولى ثمرات نجاحهما فى إيطاليا ، اذ قاما أولا بتقليد موسيقاها قبل أن يستطيعا إظهار شخصيتهما الفنية ، ونتاج عملهما المستقل

لهذا طمح الوالد موتسارت الى الرحلة الى ايطاليا ، وان لم يكن فيها ما يمكن أن يتزود طفله « فولفجانج » من علم مجهول له إذ لم يكن ينقص معرفته الموسيقية شيئا ، ولكن كان عليه أن يدرس عمليا حياة المسرح ، وطابع الغناء الايطالى، وأن يحرز فى الأهم واسم الشهرة فى عالم تلحين الأوبرا . وإنه اذا لم يصادف فى إيطاليا مالا كثيرا فإن تلك الشهرة كفيلة بأن تفتح أمامه خارج ايطاليا جميع أبواب الرزق

وإذ كانت مثل هذه الرحلة قليلة الفائدة لشقيقته « ماريانا » فقد اعتزم الوالد موتسارت أن يقتصر فيها على طفله فولفجانج . واذن فقد حصلا على الاجازة اللازمة من المطران ليرحلا الى إيطاليا

الرحلة الى ايطاليا

بدأ الرحلة إلى إيطاليا فى شهر ديسمبر عام ١٧٦٩ وكان الجو صقيما وقد غطيت جبال الألب بالثلوج . وكلما أمعن الوالد موتسارت وطفله فولفجانج فى البلاد الإيطالية زادت زرقة السماء، وفاح عطر الأزاهير وانتشر فى الجو فزاد خفقان قلبهما وأفعمت نفوسهما بالأمل فى النجاح المنتظر

وإذ كان حماس استقبال الإيطاليين لأهل الفن يفوق بكثير حماس الشعوب الشمالية فقد استقبل فولفجانج المعجز استقبالا لا عهد له به من قبل، سيما فى المدن الإيطالية « روفيريدو » و « فيرونا » و « منتوا » وكانت مقدرته الفنية موضع الحفاوة فى كل مكان ، ومثار الدهشة والإكبار حيثما سار ، حتى لقد وجد له فى كل بلد أصدقاء وأنصار، ولقبه الأيطاليون باسم « أماديوس » ومعناه المحبوب من الإله ، وكان هذا اللقب أسهل عندهم فى النطق من لفظ فولفجانج ولقد أضيف هذا اللقب الى اسمه الرسمى حتى صار هو نفسه يكتب اسمه « فولفجانج أماديوس موتسارت »

وما كاد الوالد وولده يصلان فى رحلتهما الى مدينة (ميلانو) فى نهاية يناير سنة ١٧٧٠ حتى كانا قد بلغا ما تمنياه وحققا أملهما فى الرحلة ، ذلك بأنه قد طلب إلى الطفل أن يقوم بتلحين أوبرا كبيرة للموسم القادم

فى تلك المدينة يكون ظهورها فى الشتاء التالى ولقد اتفق متعهد المسرح معه على أن يقوم أحد شعراء إيطاليا بنظم الأوبرا حتى إذا فرغ منها أرسلها الى فولفجانج الذى أصبح ذا دراية تامة باللغة الإيطالية، وعليه بمجرد تسلم الأوبرا أن يبادر بتلحين الأجزاء ذات الألحان الإلقائية، ثم يعود بنفسه فى شهر نوفمبر الى (ميلانو) حيث تكون قد حضرت اليه طائفة المغنين والمغنيات الذين سيختارون للأوبرا فيبدأ حينئذ بتلحين المقطوعات المنفردة، وألحان المحاورات الثنائية والثلاثية وغيرها من بقية ألحان الأوبرا بعد دراسة أصوات كل من هؤلاء المغنين والمغنيات ليقوم بعمل الألحان المناسبة لصوت كل منهم من ناحية طبيعته، ومهارته الفنية، وقدرته على الأداء، وكان هذا النظام هو المتبع فى تلحين جميع الأوبرات فى إيطاليا وقتذاك

وخرج الوالد وولده من ميلانو فرحين مستبشرين فوليا وجههما شطر مدينة (بولونيا) وكانت إذ ذاك حاضرة الفن الموسيقى يعيش فيها الموسيقار (بادرمارتينى) أكبر علماء الموسيقى فى القرن الثامن عشر إطلاقا وقد تخرج فى مدرسته كثير من فطاحل الملحنين، وكبار رجال هذا الفن وكان حكمه على الفنان يعتبر حكما فاصلا، لا فى إيطاليا وحدها بل وفى خارجها. وكان يعيش الى جانبه فى تلك المدينة وقتئذ علم من أعلام الغناء الخالدين يدعى (كارلو بروشى) وكنيته (فارينللى) اعترف هذان

الألمان بعبقرية فولفجانج وتبينا فيها قوة فنيـة ستنتحى بالفن الموسيقى ناحية خاصة وتخلق فيه تطورات جديدة



« فولفجانج موتسارت فى الرابعة عشرة من عمره »

وكانت فى مدينة بولونيا أكاديمية موسيقية تعتبر أكبر أكاديمية فى

العالم من نوعها ، حتى لقد كانت الأجانب من الفنانين يعدون من أكبر أمانيهم انتسابهم إليها بعضويتهم فيها ، وكان على الراغب فى ذلك أن يؤدى امتحانا خاصا ، شاقا عسيرا فمن أسعده الحظ بالنجاح فيه فاز بعضوية الأكاديمية ويستطيع أن يعد نفسه فى زمرة أساتذة هذا الفن

سكنت تلك الأمنية رأس فولفجانج الصغير ، فرغب أن ينال شرف هـذه العضوية . طفل فى الرابعة عشرة من عمره يريد أن يكون عضوا فى أكاديمية (بولونيا) !! حقا لقد ذاعت شهرة هذا الطفل حتى عمت سائر اوربا ووصلت الى أسماع أساتذة هذه الأكاديمية ، ولكنهم لم يكونوا ليتصوروا أن يبلغ إقدام هذا الطفل الى أن يمنى نفسه بهـذه الأمنية التي يستلزم تحقيقها معرفة أكيدة بأصول الكثير من العلوم الموسيقية

وفى مساء ذات يوم حضر الوالد وولده فى ساعة معينة ، وجلسا فى بهو الأكاديمية ، انتظارا لأداء فولفجانج الامتحان ، وحضر جميع أعضاء الأكاديمية الموجودين فى مدينة بولونيا وجلسوا فى نصف دائرة واسعة حيوا بعد ذلك الطفل المتقدم للامتحان التحية التقليدية ، وقام رئيس الأكاديمية وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد ، وسلم فولفجانج ورقة الامتحان وكانت قطعة من نوع الغناء المضاد المتبادل (الأنتيفونى) وكان على المتقدم للامتحان أن يقوم بتلحينها لأربعة أصوات وهذا النوع من

التأليف يخضع لقواعد معينة غاية فى الدقة لا مجال فيها لتصرف المرء من عندياته إطلاقا

تسلم فولفجانج ورقة الامتحان في هيبة وخشوع ، وبانحناء متواضع ثم كان من أمره أن لقى ما لاقاه فى (زالتسبورج) من المطران ، ذلك بأن هيئة الأكاديمية قد ساقته إلى غرفة خاصة أقفلت عليه بعد أن حددت له زمن الإجابة على الامتحان بمدة ثلاث ساعات. وإذ قد ساقه الحاجب إلى الغرفة وغاب عن نظر الوالد ، أخذ قلب الوالد فى الخفقان ، وتصبب العرق من جبينه خوفا على ولده (إذ كان يعرف حق المعرفة أن كثيرا من الموسيقيين ذوى الشهرة الواسعة قد أخفقوا فى الامتحان)

وما انقضت نصف ساعة من الزمان حتى حضر الحاجب يعلن أن الأستاذ الصغير قد أعطى الإشارة الدالة على انتهاء زمن الامتحان

كان ذلك مثار الدهشة والعجب الشديد لدى جميع أساتذة الأكاديمية إذ كان من المحتم على أكبر الفنانين أن يستغرق جميع الثلاث ساعات قبل إنجاز هذه العملية الشاقة فى التأليف

بقى فولفجانج فى غرفته منفردا بينما أخذت هيئة الأساتذة تفحص عن إجابته واحدا واحدا . مضت ساعة كاملة وورقة الإجابة تتنقل بين أيديهم والوالد فى غمرة من الخوف لم ينسها طول حياته . ثم كان أخذ الأصوات بطريق الكرات البيضاء والكرات السوداء ، وكانت الأولى

للدلالة على النجاح ، والأخرى على الرسوب وكان كل عضو من الأعضاء يمر به كيس يسقط فيه كرة معينة بيضاء أو سوداء واخذ الكيس يتنقل من عضو إلى عضو في سكون رهيب حتى جاءت ساعة الفصل

أفرغ الرئيس الكيس فكانت جميع الكرات بيضاء وإذن فقد أعلن الرئيس أن المتقدم للامتحان قد قبل بالإجماع عضوا بالأكاديمية

وهنا فتح الباب وأقبل الطفل ابن الرابعة عشرة فأخذ الجميع يستقبلونه بالتصفيق الحاد هاتفين يحيا الأستاذ يحيا عالم الهارموني .

فاض قلب فولفجانج بالفرح ، وهطل الدمع من عيني الوالد وقد ضمه إلى صدره

مواصلة الرحلة في ايطاليا

غادر الوالد موتسارت وطفله مدينة بولونيا بعد أن كتب الله لهما النجاح الفني وأصبح فولفجانج الصغير عضوا في أكاديميتها الموسيقية بعد أن جاز امتحانها الخطير على النحو الذي ذكرناه ، وقصدا إلى مدينة فلورانسا حيث استقبلا استقبالا رائعا ولقى فن « فولفجانج » فيها مالقيه في بقية البلاد الإيطالية من حسن التقدير ، وعظيم الإعجاب ، وكسب فيها من علية القوم وأشرافهم كثيرا من الأصدقاء والمعجبين

ثم غادرها إلى مدينة روما لحضور الاحتفالات الكبرى والمهرجانات

الرائعة التي تقام فيها بمناسبة أسبوع القرابين الذى يتقدم عيد الفصح

ونزل الوالد وولده روما فى ضيافة أوسلنجى رسول البابا بناء على توصية كتبت له ، وكان هذا شرفا كبيرا لهما فلم يكن ليتشرف بمثل هذه الضيافة إلا الشخصيات المقربة من بلاط البابا . وقد تسابقت الأسر الأرستقراطية بتلك المدينة إلى دعوة الفنان الصغير العبقرى ذى الشهرة العالمية والصيت البعيد وشادت بفنه وبالغت فى إطرائه والثناء عليه. ولقد كان لما احتوت عليه تلك المدينة القديمة من بدائع الفن وروائع الآثار والتماثيل التى بلى الزمان ولا تزال فى جدتها ونضرتها تأثير قـوى فى نفس فناننا الصغير . وقد ضاعف هذا الجمال الفنى جمال مهرجانات أسبوع القرابين، الذى كانت تحتفل به تلك المدينة احتفالا منقطع النظير لا تلاحقها فيه مدينة أخرى إطلاقا ، ولقـد تدفقت إليها الجماهير من كل صـوب وهرع إليها الناس من كل حدب أفواجا وطوائف ، إما لنزعة دينية أو لمجرد الرغبة فى رؤية تلك المهرجانات وازدحمت طرقات المدينة بالغرباء من الزائرين ، حتى أصبحت معرضا فخما لمختلف أزياء الجماهير من مختلف الطبقات، فقيرهم وغنيهم ، سوقتهم وأمرائهم . وكان الجميع يسـيرون جنبا إلى جنب لا فرق بين كبير وصغير

وفى آخر ليلة من ليالى المهرجانات ، ليلة الخميس الحزينة ، أخـذت المدينة زخـرفها وازينت ، وبلغت المهـرجانات أوج فخامتها ، وكانت

الكنيسة البطرسية أكثر الأماكن بهاء وضياء، حيث تسابق إليها المحتفلون كلهم يحاول رؤية البابا تبركا به، وأخذت الفرقة السكستنسية (نسبة إلى منشئها البابا سكستس الرابع الذي عاش فى نهاية القرن الخامس عشر) مكانها فى الكنيسة وكانت هى الفرقة المخصصة بغناء التراتيل، وكان بين تراتيلها قطعة تعرف بالدعاء الخالد، يرجع عهد تأليفها إلى نهاية القرن السادس عشر، وهى قطعة دينية غريبة فى تأليفها الموسيقى، اختصت هذه الفرقة وحدها بترتيلها، ولم يكن من المتيسر سماعها فى غير هذه الكنيسة ولمناسبة مهرجانات أسبوع القرابين وقد حال ذلك دون تداولها وانتشارها بين الجمهور، ذلك فضلا عن أنه كان ممنوعا تدوين ألحانها منعا باتا حتى لقد كان مغنى الفرقة مهددا بأقصى العقوبات إذا هو أفشى سرها وكشف عن سر موسيقاها، على أنه لم يكن مصرحا للمغنى الاطلاع على غير النوتة الخاصة بصوته دون سواه

كانت هذه الفرقة وأغانيها موضع اهتمام فولفجانج الصغير حتى لقد انصرف عن كل شيء آخر سواها

أقبل البابا، وأطفئت أنوار الشموع دفعة واحدة إلا خمس عشرة شمعة منها كانت تضيء فوق فرقة التراتيل وبقى المكان بعد ذلك فى ظلام رهيب

بدأت الفرقة فى التراتيل، وكان عدد أفرادها اثنين وثلاثين مغنيا

برتلوندون مصاحبة الآلات الموسيقية ، وكان البرنامج أن ترتل الفرقة خمسه عشر ترتيلا يعقبها ترتيل « الدعاء الخالد » وكلما انتهت الفرقة من أداء أحد التراتيل أطفئت إحدى الشموع ، وهكذا كانت تزداد ظلمة المكان ، وتشتد حلوكته كلما توغلت الفرقة فى تراتيلها وازدادت الألحان حزنا وتعبيرا عن الأسى والأنين كأنما تتحمل النغمات آلام الانسانية ، وعذاب البشر ، رفعها إلى البارىء العظيم المتصف بالخلود . فلما انتهت الفرقة من ترتيل النشيد الخامس عشر أصبح المكان كأنه القبر فى ظلمته ، وهنا بدأت الفرقة فى ترتيل «الدعاء الخالد» وهو معجز بما احتواه من ألحان سهلة ممتعة صافية ، حتى ليخيل للناس أنها إلهام من السماء وأنها ليست من ابتداع البشر ، بل إن تلك الأغنية لتسمو بالفرقة نفسها حتى ليتخيل المرء ان هؤلاء المرتلين من طبقة غير طبقة الناس ، وأن تلك الأصوات ليست صادرة من حناجر آدمية وإنما هى صادرة من أعماق الإيمان الدينى

انتهى الاحتفال على هذا النحو التقليدى ، فكان فولفجانج أثناءه فى غيبوبة حتى اضطر والده أن يوقظه من حلمه العميق فتنبه إلى العالم الخارجى وقد أخذ جمهور الناس ينصرف من الكنيسة فى سكون رهيب وصمت عميق

فى الليلة التالية لهذا الاحتفال ، قام فولفجانج من سرير نومه

وأضاء شمعته ، وأتى بورق النوتة وبدأ يكتب من ذاكرته لحن « الدعاء الخالد » وقد سكن اللحن في رأسه صوتا صوتا، وباطوطة باطوطة . فلما تنفس الصبح وضع الطفل بين يدى والده ما كتبه فى خلوته ليلا ، فذهل الوالد وغمرته الدهشة المقرونة بشعور الفرح والسرور ، إذ استطاع طفله الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره أن يعى فى ذاكرته لحن « الدعاء الخالد » ولم يسمعه غير مرة واحدة ، وهو لحن معجز لم يستطع نقله أى إنسان قبله .

وكان اليوم يوم الجمعة الحزينة ، وكانت هذه التراتيل ستعاد فى الكنيسة للمرة الثانية ، فانتهز فولفجانج الفرصة وأخذ معه أوراقه التى دوّن فيها لحن الدعاء بعد أن خبأها فى قبعته فاستطاع بذلك أن يصححها وأن يستوفى كل ما يمكن أن يكون قد فاته فيها من الأصوات

وما انقضى على هذا الحادث أيام قليلة حتى عزف فولفجانج هذا اللحن أمام أحد أفراد الفرقة السكستية وهو المغنى المشهور « خرستوفورى » ولشد ما كانت دهشته عند ما سمع اللحن لا ينقصه نغمة واحدة مع علمه اليقين بصعوبة هذا الأسلوب الكنسى القديم فى التلحين وتعسر نقله

وهكذا أخذ الوالد وولده يتنقلان في البلاد الايطالية من مدينة إلى أخرى حتى انتهى بهما المطاف إلى « نابولي » وكانت تلقب وقتئذ ملكة المدائن ، تسودها روح فكهة مرحة ، ويعمها الرخاء ، ورغد العيش

تعج طرقها بالباعة المتجولين ، أو الجالسين على أفاريز الطرق ، كل يتغنى بالنداء على سلعته بكيفية خاصة ، فكانت المدينة بما فيها صورة جديدة لم يشهداها من قبل في فينا وباريس ولندن وغيرها من المدن التي رحلا إليها

وأقبل المساء فكان منظر البحر الأبيض يطوق المدينه وقد انعكس ضوء القمر على صفحة مائه فظهر رائعا ساحرا

أثر ذلك أكبر الأثر في نفس فناننا الصغير الذى استقبل ووالده فى تلك المدينة أبلغ استقبال ، حتى لقد عنيت بأمرهما النبيلة « كاونتس » فقدمتهما إلى أرقى الأوساط الأرستقراطيه وأتاحت للصغير الفرصه ليقوم بالعزف أمام أمراء تلك المدينه وأكابرها

وكان من أهم الحفلات التي دعى إليها للعزف بالبيانو حفلة أقيمت بمعهد الموسيقى حضرها طائفه الأرستقراطيين وأساتذة المعهد وكبار طلبته

ما كاد العزف يبتدىء في تلك الحفلة حتى عم المكان صمت عميق وسكت الجمع المحتشد كأن على رأسه الطير ، وهنا بدأت مراجل الحقد تغلى فى صدور بعض الطلبة وأولياء أمورهم ، إذ صعب عليهم أن يروا طفلا فى الرابعه عشرة من عمره يتسلط على تلك الآلة هذا التسلط المعجز بينما هم وقد قضوا فى دراستهم الأعوام الطويلة فى جهد متواصل وكد ومشقه لم يقطعوا غير مرحلة لا تكاد تذكر بالنسبه لفن هذا الطفل الصغير . وهو طفل أجنبي من بلاد المانيا المتأخرة التي لا يمكن أن يجارى

أبناؤها أبناء إيطاليا التى تعتبر موئل الفن وموطن الموسيقى . إذن لا بد وأن يكون فى الأمر دسيسة وأن تكون هذه الحالة غير طبيعية . وبدأ القوم يتهامسون فيما بينهم ويسر كل إلى جاره شيئا في أذنه ، وراجت فكرة غريبة فى البهو ، وإذا بواحد من الجمهور ، وهو الموسيقار « جوميللى » يصعد إلى المسرح حيث كان «فولفجانج» يعزف بالبيانو وخاطبه قائلا :

— أيها الأستاذ : إن القوم يعتقدون أنك ساحر ، وأن هذا العزف البديع لا يرجع الى مهارتك ، إنما هو عمل قوة سحرية مصدرها خاتم الماس الذى فى إصبعك

فأجابه (فولفجانج) باسما

— إن هذا الخاتم هدية لي من جلالة القيصرة «ماريا تريزا » وهو لى بمثابة الطلسم حقا ، إذ يذكرنى دائما بهذا الرضاء السامى ، وليس له علىّ من أثر سحرى غير ذلك

وهنا خلع « فولفجانج » الخاتم من إصبعه وألقاه الى جانبه أمام أعين الحاضرين ، وعاد الى عزفه أبدع مما كان وأروع ما يمكن أن يصل إليه الفن حتى ضجت الصالة بالنداء تحييه

« يعيش الأستاذ يعيش الموسيقار »

وقد وجم أصحاب فكرة الاعتقاد السحرى وعمهم الخزي

وعاد الوالد وولده الى « روما » ثانية حيث تمكن فولفجانج بواسطة «الكردنيال بللافيتشينى» من مقابلة البابا مقابلة خاصة أنعم عليه فيها بوسام دينى يخول لحامله أن يلقب نفسه بالفارس، وإن كان فولفجانج لم يستخدم هذا اللقب فى حياته إطلاقا، ذلك بأنه أراد أن يكون فنانا فحسب، وأن يظل حياته كذلك

وتسلم فولفجانج أثناء إقامته فى « روما » رسالة من الشاعر « إيجناسانتى » ، وهى عبارة عن رواية الأوبرا التى كان يرتقب وصولها بفارغ الصبر ، والتى كان عليه تلحينها لمدينة «ميلانو» وعنوانها (متردانس ملك بونت)

وعلى أثر وصول تلك الرواية لفولفجانج أتم جزءا كبيرا من ألحانها الالقائية . وأرسل بها فعلا إلى ميلانو . ثم سافر اليها مع والده في منتصف شهر أكتوبر ولم يكن المغنون والمغنيات الذين سيقومون بغناء الأدوار الرئيسية فى تلك الأوبرا قد بلغوها بعد فلم يستطع عمل شىء ، إذ كان لا بد له من معرفة مناطق أصواتهم أولا ليصوغ لهم ألحانا تتفق وحناجرهم شأنه في ذلك شأن الحائك الذى يحيك الملابس وفاق أجسام أصحابها

وبدأ هؤلاء المغنون والمغنيات يفدون إلى (ميلانو) واحدا واحدا وكان أسبقهم جميعا فى الحضور المغنية الأولى للأوبرا ، وهى ألمانية المولد،

ولكنها حملت اسم زوج أمها (برناسكونى) الايطالى الذى يرأس الفرقة الموسيقية ، وقد تبناها صغيرة ونشأها تنشئة موسيقية ، إذن فقد كانت هذه المغنية مواطنة لفولفجانج وهذا ماحفزها للميل إلى موسيقاه، على أنها عرفته من قبل فى فينا أيام كانت تعمل فى المسرح تحت إدارة (فليجيو) ورأت بعينها ما منى به هذا الفنان الصغير فى بلاده من خيبة الأمل ، وتألب الفنانين من المواطنين والايطاليين عليه وكيف وقفوا فى سبيل ظهور أوبراه فكانت ذلك مدعاة لعطفها عليه والرغبة في معاونته

وكانت هذه المغنية ذات صوت حسن وحنجرة موهوبة

وقد عرف فولفجانج كيف يبدع الألحان الموافقة لها ، وكيف يظهر محاسن صوتها ونواحى الفضل فيه ، فسعدت هذه المغنية بدورها ، وأقبلت على دراسة ألحانه بشغف وميل عظيمين . كذلك استطاع الموسيقار الصغير أن يرضى بقية المغنين والمغنيات وأن يلحن لكل منهم ما يناسب صوته حتى أرضى الجميع رضاء تاما.

ولكن الدسيسة التى قامت ضده فى (فينا) عادت تطل برأسها فى (ميلانو) إذ كان هناك حزب قوى يعمل في الخفاء على إسقاط هذا الفنان الصغير. وقد عمل أعضاؤه على تسميم روح الجمهور قبل ظهور الأوبرا رغبة فى إسقاطها وألبوا عليه جماعة الفنانين، وشد ساعد هذا الحزب وفرة الفنانين الايطاليين الذين يحقدون علي هذا الفنان الصغير ، إذ كانوا يجدون من

العار أن يعلم الناس أن تلحين الأوبرا يمكن أن يقوم به طفل أجنبي ، لأهم مسرح فني أرستقراطي في ايطاليا

نعم لقد اعترف أساتذة أكاديمية بولونيا بمقدرة هذا الطفل وعلمه إلا أن هذا الاعتراف لا يمكن أن ينهض دليلا على استطاعته تلحين أوبرا تلحينا جيدا مناسبا ، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء الأساتذة أنفسهم ، وهم أكثر الناس علما بالموسيقى ، لم يؤلف واحد منهم أوبرا واحدة

بمثل هذه الدعاوى كانت تسمم أفكار الشعب بل والمغنين أنفسهم حتى أصبحوا يعتقدون أن كرامتهم الفنية تتنافى والقيام بأداء ألحان يضعها مثل هذا الطفل الصغير . حتى لقد حاولوا التأثير على المغنية الأولى « برناسكوني » واجتذابها الى صف المعارضة بعد أن أفهموها أنه من الخطر على سمعتها الفنية أن تقوم بغناء ألحان ولد لما ينبت شعر لحيته ، ولقد عرضوا عليها أن يضعوا ألحان موتسارت وقد أعجبت بها وسط مؤلفات أخرى ينسبونها للموسيقاريين الإيطاليين ، وأن تقوم بغنائها على هذا الوضع ، ولكن المغنية لم تأبه بكل هذه الدسائس ، وظلت مؤمنة بعبقرية مواطنها الصغير .

ولئن تكتم القوم ما كان يجرى فى الخفاء ضد تلك الأوبرا ، لقد أحس الوالد موتسارت بهذه الشباك تحاك حول ولده ، وكان كلما

قتربت مواعيد التجارب ازداد هم الوالد وقلقه

أما « فولفجانج » فكان يسير في طريقه ، فنانا لا شأن له بالعالم الخارجي ، يسير في طريقه واثقا من نجاح أوبراه ، لا يثنيه عن متابعة عمله شيء من ذلك . حتى لقد كان يستسيغ الجو الذي يعده الغير مشوشا غير مناسب للعمل . ومن أظرف ما حدث في ذلك ما كتبه إلى شقيقته إذ ذاك يقول :

« يسكن فوقنا عازف بالكمان ، وتحتنا عازف بالكمان كذلك ، وبجوارنا أستاذ يعلم الغناء ، وتجاهنا عازف بالمزمار . جو مرح يساعد على التلحين ويوحي بالأفكار الموسيقية »

ولقد لازمته هذه العادة عادة عدم التأثر بالعالم الخارجي أثناء تفكيره ، طوال حياته ، حتى لقد تم له عند ما كبر أن صاغ أحسن ألحانه في أثناء لعبه بكرات (البليارد)

وفي السابع عشر من ديسمبر بدأت أول تجربة كبيرة للأوبرا . ففوجيء جميع المشتركين في أدائها من مغنين ومغنيات وأفراد الفرقة الموسيقية بما أدهشهم من عذب الألحان ورائع التأليف ، ورضي كل عما قسم له منها رضاء تاما فخسر الدساسون قضيتهم وانتصر الفن

وأخيرا حل اليوم الثاني من عيد الميلاد . وهو اليوم الذي تحدد لظهور تلك الأوبرا لأول مرة علي المسرح ليشهدها الجمهور . هاجت

الخواطر فى جميع أنحاء ميلانو وانقسم أهلها طائفتين طائفة تناصر الفنان الصغير مؤمنة بعبقريته المعجزة والأخرى تناوئه وتعمل على فشل نتاجه

حان موعد الابتداء ووقف « فولفجانج » الصغير يدير فرقته الموسيقية المؤلفة من ستين عازفا وقد أمسك بعصا القيادة فى يده بثبات ورباطة جأش كما أخذ يقود حركة الغناء فوق المسرح وكان كلما انتهى مغن أو مغنية من أداء قطعة غناء منفرد ارتفعت تحية الجمهور للفنان :

« يعيش الأستاذ ، يعيش الأستاذ الصغير »

دوى المكان بهذه التحية عشرات المرات فى أثناء التمثيل وتزايدت حماسة الجمهور حتى أخذ يردد هذا النداء فى الطرقات بعد الخروج من المسرح

وهكذا كتب الله النصر المبين للفنان الصغير الأجنبي الذى لما ينبت شعر لحيته

ولقد بلغ من نجاح هذه الأوبرا أن مثلت عشرين مرة متوالية كان المسرح فى جميعها يضيق بالوافدين إليه والمتحمسين لتحية الفنان

ولقد تمنى أهل ميلانو أن يسعدهم هذا الفنان الصغير فى القريب بتأليف شىء جديد من روائع ألحانه ، ولم يغادر تلك المدينة إلا بعد أن وعدهم بتلحين أوبرا أخرى خصيصة لمهرجانات كرنفال عام ١٧٧٠ .

ثم عاد « فولفجانج » ووالده إلي مسقط رأسه زالتسبورج وما كادا يصلان إليها حتى تلقيا أمر القيصرة «ماريا تريزا » بتكليف « فولفجانج» تأليف مقطوعة موسيقية لمناسبة حفلة الأمير « فردناند » بالأميرة « بياتريش » في ميلانو . وإذن فقد بادر « فولفجانج » بالعودة ووالده إلى هذه المدينة مرة أخرى فبلغاها في نهاية أغسطس حيث استقبلا استقبالا رائعا من جمهرة الأصدقاء والمعجبين، بل لقد استقبلت الأميرة المخطوبة الموسيقار الصغير أفخم استقبال ولقد بلغ من نجاحه فى مقطوعة الزفاف أن أعيد عزفها مرارا متتالية فى ميلانو على غير ما كان مألوفا فى مثل تلك المقطوعات التى توضع لمناسبات خاصة تحبس عليها .

وفى اليوم الثانى من عيد الميلاد عام ١٧٧٢ كان « فولفجانج » قد بر بوعده وأعد العدة لإظهار الأوبرا الجديدة التى كان يتشوق إليها أهل « ميلانو» وقد أسماها « لوسيوسيلا » وقام فيها أيضا بقيادة الفرقة والمسرح وأصاب من النجاح فيها أضعاف نجاحه فى سابقتها وتوالى تمثيلها عشرات المرات

وانهالت الطلبات بعد ذلك على الموسيقار الصغير بصياغة ألحان جديدة إلا أنه مع الأسف كانت هذه الأوبرا آخر نتاج قدمه للبلاد الإيطالية ، ذلك بأن المقادير جرت على غير ما يريد ، ووقع في زالتسبورج انقلاب أثر فى مستقبل «فولفجانج» ولم يكن فى صالحه كما سنبينه فيما بعد .



تبدل الحال فى مدينة « زالتسبورج » إذ مات أميرها المطران « زيجموند » وتربع خلفه المطران « هيرونيموس فوز باولا ». ولئن كان هذا الأمير خلفا صالحا ساهرا على شئون إمارته لقد كان غير موفق فى اجتذاب قلوب حاشيته إليه، وحبها له وكان موقف الوالد موتسارت وولده « فولفجانج » من هذا الأمير غاية فى الحرج والسوء، فلم تكن عبقرية الفنان « فولفجانج » فى بصر الأمير وتعقله شيئا يستوجب الإعزاز والإكبار، لهذا حرمه ما كان يتمتع به فى عهد سلفه المطران الأسبق من الترخيص له فى إجازات يقضيها فى رحلات فنية فى ربوع البلدان المختلفة. وكان هذا المطران الجديد يسمى مثل هذه الرحلات الفنية « تجوال الاستجداء »

وإذن فهو لم يرخص له فى الرحلة إلا مرة واحدة، على سبيل الاستثناء حيث استدعاه إليه « مكسمليان الثالث » أمير مقاطعة بافاريا ليلحن له أوبرا « البستانية المتغابية » خصيصا لمهرجان كرنفال عام ١٧٧٥

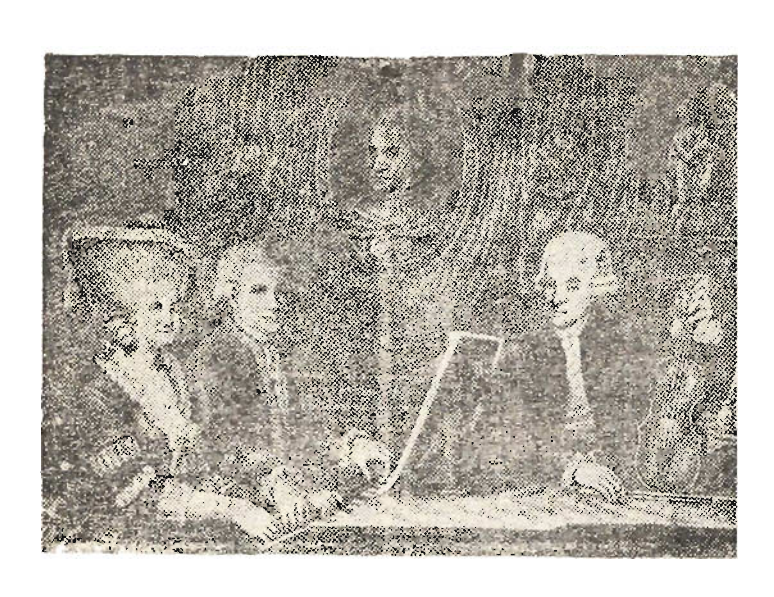
قام الوالد موتسارت وولده بهذه الرحلة فى أوائل ديسمبر سنة ١٧٧٤ وكان قد تحدد منتصف شهر يناير موعدا لظهور تلك الأوبرا فأحرز الفنان الصغير فيها نصرا مبينا شهدته شقيقته « ماريانا »

وفى نفس هـذا العام حضر الأمـير « مكسمليان » إلى مدينة « زالتسبورج » فكلف « فولفجانج » تلحـين أوبرا « ملك الرعاة » احتفاء بهذه المناسبة

ثم قضى الأمر بعد هذه السنة على المسكين « فولفجانج » وكتب لتلك العبقرية الفنية الجبارة أن تقبر فى مدينـة (زالتسبورج) الصغيرة وأن تقنع برآسة فرقة المطران الأمـير بوظيفة لم تتجاوز الجنيهين شهريا وكتب عليه أن ينسى العالم أجمع ويتغاضى عما أحرزه من النصر الفني المبين ، وكان لا بد أن يخيم نسيج النسيان على تلك الشهرة الذائعة فى أنحاء تلك المدن المترامية الأطراف التى ذاع فيها صيته ، وبالغ أهلها فى تكريمه والاحتفاء به

أحس (فولفجانج) في نفسه مرارة هذا الانحباس . وزاد شعوره بقساوته وهو الفنان الذى تعـودت نفسه أن تكون حرة طليقة ، فاعتزم تحطيم هذه السلاسل والقيود ، وأن يرحل إلى البلاد الأجنبية مهما كلفه الأمر ، ، فهو لا بد واجد فيها رزقا واسعا ولعله يوفق إلى وظيفه ثابتة تتفق ومركزه الفنى

أعد العدة لذلك سرا ، وقام بتلحين كثير من المؤلفات الموسيقية التى أعدها للعرض ، فلما تم له الأمر أوعز إلى والده بالذهاب إلى الأمير المطران ليستأذنه لهما فى الرحيل



أسرة موتسارت : الوالد يعزف بالكمان
وفولفجانج وشقيقته ماريانا يعزفان بالبيانو

ذهب الوالد موتسارت الى أميره يسأله هذا الترخيص ولكنه رفضه بإساءة صلف وكبرياء

إذن لم يجد (فولفجانج) أمامه إلا أن يستقيل من خدمة هذا الأمير فكتبها استقالة قصيرة تنم سطورها القليلة عن الرهبة والخوف. وخشي الوالد أن يترتب على استقالة ولده فصله هو أيضا من وظيفته، ولكن ذلك لم يحدث إذ اكتفى المطران بقبول استقالة الفنان الصغير

ولئن اطمأن الوالد موتسارت على بقائه في خدمة الأمير المطران لقد اعترضته الآن صعوبة جديدة، تلك أنه أصبح عاجزا عن اصطحاب ولده في رحلته، ولم يكن من السهل عليه أن يتركه يقوم وحده بتلك

الرحلة . حقا لقد بلغ (فولفجانج) العشرين من عمره إلا أنه كان فنانا ، وفنانا فقط ، يجهل الكثير من شئون الحياة بخلاف والده الذى خبرها فصار بها عليما . كان دائم التفكير فى فنه ، مولعا به ، منغمسا فيه لا يهتم بما يحوطه من عالم خارجى فكان كالطفل فى سذاجته وجهله بأسرار الحياة

ماذا يكون إذن مصير هذا الفنان الشاب إذا ترك وحده يقوم برحلات لا يعلم إلا الله مدى ما يصادفه فيها من شدائد وعقبات ومشاق ؟ لم يكن للتغلب على هذه المعضلة الشديدة إلا حل واحد ذلك أن تقوم الأم مقام الوالد فتصحبه فى رحلته سيما وقد كانت أما حازمة مدبرة ذات حنكة وتجربة

وفى سبتمبر سنة ١٧٧٧ بدأت رحلة الأم مع ولدها « موتسارت » الصغير . وكان فراقهما للوالد وابنته « ماريانا » شديدا مؤلما . ولو علم الوالد وابنته ما خبأ لهما القدر من جعل هذا الوداع وداعا أبديا للأم التى ستلقى ربها فى تلك الرحلة لكانا أشد ألما وأكثر وجعا

كانت « ميونخ » أولى المدائن التى زارها ، فطمع الفنان الشاب أن يجد له فى بلاط أميرها وظيفة ثابتة يعتمد عليها فى حياته ، سيما وانه غير مجهول القدر فى هذا البلاط ، وقد أحرز فيه آخر انتصاراته الفنية بتلحين أوبرا « البستانية المتغابية » التى لحنها خصيصا لهذا الأمير منذ

ثلاثة أعوام ، وقد أكسبه هذا النصر أصدقاء كثيرين ، ومعجبين عديدين كان من بينهم الأمير نفسه . إلا أن هذه الآمال كانت سرابا فلم يتحقق شيء منها ، ولقد تشرف بمقابلة الأمير ، والتحدث إليه ذاكرا له انتصاره الفني العظيم فى إيطاليا ، ونجاحه فى امتحان أكاديمية بولونيا ، ولكن ذلك كله لم يجده عند الأمير نفعا ، بل كانت كل إجابته مقصورة على جملة واحدة هى أنه « ليس لديه وظيفة خالية » وقد قالها بغير اهتمام ولا اكتراث ، ولم تزد مدة تلك المقابلة على بضع دقائق إذ كان الأمير النبيل يتعجل الخروج للصيد ، وليس لديه متسع من الوقت يضيعه مع مثل هذا الفنان !!

تطلع (موتسارت) الشاب إلى بلاط مدينة (مانهايم) وكان أميرها (كارل تيودور) معروفا بحبه للموسيقى ، وشغفه بها ، والعمل على نهضتها ، وكان شديد الرغبة فى تأسيس أوبرا ألمانية ، ويعد رئيس فرقته من أكبر رجال الموسيقى فى ألمانيا قاطبة ، كما أن أعضاءها نخبة طيبة من مهرة العازفين

رحلت الأم وولدها إلى مدينة (مانهايم) هذه وكانت تلقب إذ ذاك جنة الفن الموسيقى ، وقد أحييا فى طريقهما إليها بضع حفلات لم يصادفا فيها نجاحا يذكر ، ذلك بأن (موتسارت) الفنان لم يعد طفلا معجزا ، لذلك قد قلت حماسة استقبال الجماهير له ، وفتر تعلقهم بمشاهدته

بلغا مدينة (مانهايم) وسرعان ما تعرف (موتسارت) إلى فرقة البلاط وأصبح صديقا لرئيسها وأعضائها ، إذ كان جميع هؤلاء يقدرون عبقريته وفنه

ولقد وفق إلى مقابلة الأمير ، وكان لا يزال يذكر (فولفجانج) الصغير حيث عزف أمامه وهو فى السادسة من عمره ، ولا يزال معجبا بما سمعه منه . ولقد أبدى موتسارت رغبته للأمير فى أن يلحن أوبرا خاصة لبلاط (مانهايم) فكان كل ما أجابه الأمير به أنه «سينظر فى الأمر»

ولئن كان هذا الجواب غير قاطع ، لقد خرج (موتسارت) من حضرة الأمير ممتلىء النفس بالأمل وظل ينتظر ، وينتظر ، ولكن على غير جدوى ، ولم يحظ بأن يجيبه الأمير إلى ما طلب

وانتظرت الأم مع ولدها في مدينة (مانهايم) وإذ لم يكن لهما فيها معين فقد اجتهد أصدقاؤهما فى توفير أسباب الراحة لها ، وتهيئة أمر معيشتهما بها ، فآواهما أحد هؤلاء في داره دون مقابل وتبرع لهما آخر بالغذاء ، وعاونهما رئيس فرقة البلاط بإمداد موتسارت بتلاميذ صغار يقوم على تعليمهم ، ومنحه رجل هولاندى مثر مبلغ خمسة عشر جنيها نظير تآليف موسيقية بسيطة قام بتلحينها له

هكذا انقضت الأيام في انتظار جواب الأمير وكان أكبر منغص لموتسارت فيها اضطراره للقيام بالتعليم حتى كان كثيرا ما يردد جملته

المشهورة « تبا لمهنة التدريس »... يرددها كلما صادفه تلميذ بليد الفهم تختلط عليه في العزف أزمنة العلامات الموسيقية من ذات السن أو ذات السنين أو يعزف صوتا بدل آخر. ولقد كتب إلى والده في هذا المعنى يقول:

« لقد خلقت لأكون ملحنا وقائد فرقة. لهذا فإنني لا أستطيع أن أقبر موهبتي التي منحها إلىّ الخالق العظيم بثراء وسعة، لا أستطيع أن أقبرها بمزاولتي مهنة التدريس. إن تلحين الأوبرا شيء أحسه في دمي ولحمي وإني أفضل الأوبرا الفرنسية على الألمانية، والإيطالية عليهما معا »

وكان جواب الوالد على رسالة ابنه أن « بادر بالرحلة إلى باريس ولا تجالس غير العظماء فمجالسة العظماء تظهر عظمتك »

وهذا ما كان يفكر فيه أيضا « موتسارت » الصغير فقد كانت فكرة الرحيل إلى باريس تجول بخاطره ولم يقعده عن تنفيذها غير انتظار جواب الأمير وطمعه في أن يجد له وظيفة في فرقة البلاط

ولم يطل أمد الانتظار بعد ذلك إذ وقع حادث كان فيه القول الفصل في هذا الموضوع ذلك بأنه في يوم ٣٠ ديسمبر توفي أمير مقاطعة بافاريا

وكان الأمير (كارل تيودور) الوارث الشرعي لعرشه فأسرع في الانتقال إلى (ميونخ) ليكون أميرا لتلك المقاطعة وساء جمهور (مانهايم) أن يتخلى عنهم أميرهم، مفضلا إمارة بافاريا على إمارتهم، وقضى على آمال (موتسارت) الصغير فخاب رجاؤه في البلاد الألمانية

ولم يكد الربيع يستهل حتى كان الشاب (موتسارت) قد أعد العدة للرحلة إلى باريس فبلغها ووالدته فى ١٣ من مارس سنة ١٧٧٨ حيث كان الكثير من ذكريات الطفولة الجميلة لا يزال عالقا بذهنه

استقبله صديقه القديم ، النبيل (جريم) وكان قد ارتقى فى منصبه فصار وزيرا مفوضا تغلب عليه نزعة الأرستقراطية وصلفها ، كما أحسن كثير من أصدقائه استقباله وبالغوا فى الحفاوة به ولكن موتسارت الشاب كان يحس أن استقباله الآن ، وقد اصبح فنانا ناضجا ، وموسيقارا مبدعا أقل بكثير من استقباله أيام كان فنانا صغيرا ، وطفلا معجزا . بل ان الكثير من الناس لم يتذكروه إطلاقا ، فكانت مقابلة باريس له أقل مما كان يتوقعه بكثير . وهذا شأن المدن الكبرى ، الدولية الحركة ، فهى دائما سريعة النسيان ، وبخاصة مدينة كمدينة باريس ، وبلاط كبلاط فرساى

اجتهد البارون « جريم » فى أن يقدم الشاب «موتسارت» لطائفة الأرستقراطيين ، والأوساط الموسيقية ولقد أعطاه كتاب توصية للنبيلة « شابو » وهى إحدى أميرات الأسرة الملكية ، وكانت شديدة الإعجاب بفولفجانج أيام طفولته ، غير أنها لم تتنازل بالترخيص له فى شرف المقابلة إلا بعد ثمانية أيام ، وعند ما حضر إلى قصرها تركته فى غرفة الانتظار أكثر من نصف ساعة ، وكانت غرفة شديدة البرودة غير مدفأة . ولما أقبلت تبدت فى صلف وكبرياء شديدين ، ولم تتبسط معه

فى الحديث ، بل أشارت بإصبعها إلى قطعة من الأثاث ملقاة في إحدى زوايا الغرفة،هى بيانو قديم ، وقدطلبت إليه أن يعزف به لأن البيانوات الأخرى غير مضبوطة

لم يسع « موتسارت » وقد ساءته هذه المقابلة إلا أن يعتذر من عدم استطاعته العزف بالنسبة لبرودة المكان وتجمد أصابعه ، فوافقته النبيلة على اعتذاره ، ووقف الأمر عند هذا الحد . ودخل زوجها النبيل « شابو » فساءه معاملة زوجه « لموتسارت » وبالغ فى إكرامه بغية إصلاح ما أفسدته . ولكن هذه الزيارة لم يكن لها على أى حال أثر منتج فقد ظل « موتسارت » بعد ذلك لا يسمع شيئا عن البلاط.

وبدأ الفنان الشاب يرى باريس بعين غير التى كان ينظر بها فى طفولته فقد أحس كأنما كل شىء فيها قد تغير ، فأصبح أهلها فى نظره أقل ظرفا مما كانوا عليه قبل خمسة عشر عاما ، بل أصبح يعتقد أن الشعب الفرنسى لا يستطيع فهم الموسيقى الجيدة . وإن ذلك ليتضح جليا من رسالة كتبها للوالد يقول :

« لو أنى وجدت هنا مكانا صالحا ، وطائفة من الناس ذوي قلوب ومشاعر وإدراك للموسيقى الجيدة ولو قليل لهان عليّ الأمر ، ولكنى وسط جمع من الحيوان ، وما الفارق بينهم وبينه ؟ إنهم فعلا كالحيوان فى جميع تصرفاتهم ، وإنى لم أر فى العالم بلدا بهذا الحال مثل باريس ، ولا

تحسبن يا والدى أننى أبالغ فى الأمر إنما ذلك هو حال الموسيقى هنــا ويمكنك أن تسأل أى شخص — لا يكون فرنسى المولد — فسيؤكد لك هذا الرأى . ولكنى هنا ، وعلىَّ أن أتحمل ، وأن أصبر من أجلك. وأنا أشكر الله إذا قدر لى أن أخرج من هذا البلد بذوق سليم ، كما أدعو الله فى كل يوم أن يلهمني الصبر وأن يوفقنى فى عملى فيجعله مشرفا لي ولأمتي الألمانية ، وأن يوفقنى لمكافأتك على ما أسديته لى من فضل ، وما سببته لك من متاعب ، وأن يجمعنا في القريب نستمتع بالحياة السعيدة معا »

وهنا أيضا ، فى باريس ، اضطر الشاب موتسارت إلى أن يعاون نفسه على مطالب الحياة بإعطاء الدروس الخصوصية . ولقد لحن كثيراً من القطع لإحدى صالات الموسيقى ، وكانت أرقى صالة فى باريس ، ولكن لم يعلن عن اسمه فى قطعة واحدة منها ، ولحن لها قطعة (سنفونى) ولكنها لم تعزف إطلاقا ، وكان سبب كل ذلك شدة الكراهية ، وعظيم الحقد ، على هذا الفنان الأجنبي الصغير . وكان شأن باريس فى ذلك شأن (فينا) و (ميلانو) من قبل . وبلغ الأمر فى مناهضة الفرنسيين له أنه لم يستطع الحصول على موضوع شعرى يقوم بتلحينه (أوبرا فرنسية) وهو الغرض الأساسى الذى حفزه الرحلة إلى باريس . بل لقد أصبح صديقه البارون « جريم » يعتقد فيه عجزه عن إرضاء الذوق الباريسى، حتى لقد صارح هذا البارون الوالد موتسارت كتابة بذلك

وكان من أسباب فشل الشاب موتسارت وعدم توفيقه فى باريس أنه كان فنانا متواضعا لا يعرف الملق ، ولا السعى وراء مصلحته . وكان عبقريا عظيما ، ولكنه لم يعرف كيف يستغل مواهبه وكيف يظهرها فى البلاد الفرنسية ليكسب بها الجمهور الفرنسي الذى ظل لا يقدر فنه ولا يفهمه

ولم يكن هذا الذى صادفه موتسارت من البؤس ، والخيبة والفشل فى باريس هو كل ما خبأته له الأيام فى تلك الرحلة المشئومة

بل خبأ له الدهر ما هو أمر وأقسى ، وأعد له أكبر صدمة يتلقاها المرء فى حياته ! ذلك أن قد مرضت والدته فى مايو مرضا شديدا أسلمت فيه الروح بين ذراعي ولدها فى ٣ يوليه ، وبذلك أحاط بالفنان فى هذه الرحلة جميع عوامل البؤس : من فقر ، وخيبة ، ويتم

ولعظم المصيبة لم يقو موتسارت على الكتابة لوالده بهذا النبأ المفجع إنما كتب إلى صديق له فى زالتسبورج، يرجوه إبلاغ أمر هذه الفاجعة إلى الوالد المسكين على أن يكون فى تبليغه رءوفا رقيقا . وكتب هو بعد ذلك إلى والده يصف المرض وفجيعة الموت وصفا مسهبا

اسودت باريس فى عينيه بعد هذه الصدمة واظلمت الدنيا فى وجهه وتضاعفت كراهيته لها واصبح لا يطيق الصبر على البقـاء فيها فاعتزم الرحيل منها ولكن الى أين ؟ الجواب على هذا جواب غير منتظر ، هو العودة الي (زالتسبورج) ، ذلك بأن الرئيس الأول لفرقة أميرها

المطران قد توفي كما توفي عازف الأرغن بها . وكان المطران قد أحس بعض الندم على تفريطه في عبقرية كعبقرية موتسارت الصغير وتضييعها باغفال أمرها . لذلك قد عرض عليه شغل المنصبين معا في فرقته بمرتب قدره خمسة عشر جنيها شهريا على أن يرخص له كل سنتين في عمل رحلة يقوم فيها بإذاعة شهرته في العالم

تردد موتسارت الصغير ، بادىء الرأي ، في قبول هذه الوظيفة لأنه كان لا يزال يحس سوء معاملة المطران له ولأبيه ، حتى لقد كرهه وكره (زالتسبورج) من أجله . ومن يضمن له تغيير هذه المعاملة ؟ وربما تغيرت إلى أسوأ . إنه ليتمنى لو أتيحت له فرصة العمل في بلد آخر ، وتحت سلطة أمير آخر ! وأن يجتمع في هذا البلد بوالده وشقيقته ليعيشوا معا عيشة هنيئة هادئة

ورغبة في تحقيق هذه الأمنية حاول في أثناء عودته إلى ألمانيا أن يجد له وظيفة في بلاط « ميونخ » أو « مانهايم » ولكنه لم يوفق

إذن لم يبق أمامه إلا (زالتسبورج) وأميرها المطران ، فليعد إليهما وأمره إلى الله .

كانت هذه خاتمة رحلته الطويلة وثماره التي جناها منها

عاد إلى (زالتسبورج) مكسور الخاطر ، مهيض الجناح وحيدا بعد أن أودع أعز الناس إليه أرضا غريبة أجنبية .

مجد وذلة

استمر الشاب « موتسارت » عامين كاملين يزاول وظيفته في بلاط الأمير المطران رئيسا لفرقته الموسيقية ، وعازفا بالأرغن في الكنيسة دون أن يبرح مدينة « زالتسبورج » إطلاقا

وطرأ على فنه في هذه الفترة تغيير كبير ، فلقد تخلص ذوقه من الأساليب الذائعة الاستعمال في عصره ، كما تخلص من قيود الصناعة ، وحرفية التراكيب في التأليف مما يحد من حرية الفنان وسلطته الروحية

ومن ذلك الوقت بدأت شخصيته تظهر في تواليفه ، وبتجلى نتاجه الموسيقى الخالد على الأيام وانفسحت له صحف التاريخ وبوأته الصدارة بين أساطين المؤلفين « الكلاسيك » الذين كانت مؤلفاتهم وما زالت موضع الإعجاب في كل عصر وزمن

تلقى الفنان الشاب خطابا من « ميونخ » يحمل شارة البلاط ، وما كاد يفضه ، ويقف على ما فيه حتى تهلل وجهه فرحا وبشرا ، وإذ كان والده إلى جانبه فقد سلمه الخطاب ليطلع عليه بنفسه .

قرأ الوالد الرسالة ، وعرف مضمونها :

« إن سمو الأمير « كارل تيودور » أمير بافاريا يكلف الشاب « موتسارت » تلحين أوبرا كبيرة لمدينة « ميونخ » خاصة بمهرجان

كرنفال سنة ١٧٨١ »

— هذا شعاع نور سماوى

كذلك قال الوالد فى غبطة وسرور ، ولكنه سرعان ما تجهم وجهه وتقطب جبينه ، ثم استطرد يقول :

— ولكنني أخشى أن يقف الأمير المطران فى طريقك فيحرمك الاجازة اللازمة

فقال ولده فى حزم وعزم :

— هذا مالا يستطيعه ، فإن الأمير « كارل » ليؤاخذه أشد المؤاخذة إذا هو رفض طلبه . على أن شاعر بلاطنا ، هو الذى سيقوم بنظم قصة الأوبرا . وعلى كل حال فإننى لا أستطيع ، يا أبتاه ، أن أضيع تلك الفرصة التى كنت أنتظر تحقيقها من أمد بعيد ، وهى توفيقى الى تلحين أوبرا كبيرة لمدينة « ميونخ » . وسأقوم بذلك مهما كلفنى الأمر

وفى الواقع ، لم تكن هناك فرصة للمجد والشهرة خيرا من تقديم نتاج لأوبرا « ميونخ » ، فلقد بلغت فرقتها الموسيقية فى عهد الأمير « كارل تيودور » مبلغا عظيما لم تطمح اليه فرقة أخرى بأوربا اطلاقا كما أن المغنين والمغنيات في تلك الفرقة كانوا يعدون من أسطع نجوم ذلك العصر

أتم الشاعر وضع القصة ونظمها ، وكان أساس فكرتها أسطورة

يونانية قديمة — وأسماها « ايدو مينيوس ملك كريد » وجعلها ذات ثلاثة فصول

عرض نظم الأوبرا على الشاب موتسارت فأعجب به إعجاب الإعجاب ، وسر كثيرا بموضوعها ، إذ كانت تتدرج دائما في قوة الدراما من منظر إلى منظر ، ومن فصل إلى فصل ، واحتوت كثيرا من المشاعر البشرية ، ووصف مظاهر الطبيعية من زمجرة العواصف ، وقصف الرعد

كان يقرأ النظم فتتحول كلماته فى رأسه ألحانا ، وتنقلب مواقفه إلى موسيقى تصويرية . لقد اندمج فى أوبراه وأصبح لا يعيش إلا فيها

وكان الشاب « موتسارت » قد سمع فى باريس أوبرات الموسيقار الألمانى « جلوك » [1] فأعجب بأسلوب تأليفه اللحنى ، وبخاصة فى أوبراه « إيفيجينيا » وكان أسلوب التلحين الايطالى فى الأوبرا إنما يعنى فى الأهم بناحية التطريب الموسيقى ، وإرضاء حاسة السمع فكانت السيطرة للطرب أما مطابقة الموسيقى لمعانى الشعر ومسايرة الألحان لمواقف القصة فذلك أمر ثانوى ، لذلك لم يكن الملحن ليهتم بأن تكون ألحانه معبرة عن معانى الشعر ، وأصبحت الأوبرا الايطالية نتاجا غير طبيعى لمجرد إظهار مهارة المغنى أو المغنية

لهذا فقد حاول الموسيقار « جلوك » أن يتحلل فى تأليف ألحان

---

(١) راجع ترجمته فى العدد ٥٦ من المجلة الموسيقية

أوبراه من هذا الأسلوب الإيطالي ، ورغب في أن يكون مقيدا بمعاني الشعر يعبر عن حقيقة المواقف ويكشف بموسيقاه عن أسرار القصة ، ولم يجعل المكان الأول فى تآليفه لإظهار مهارة المغنى فى استعمال حنجرته

وكان « موتسارت » أول موسيقار ألمانى اعتنق مذهب « جلوك » وتبعه فى روايته الجديدة « إيدومنيوس » التي استطاع أن يتحلل فيها من الأسلوب الإيطالى تحللا تاما

لم يبق الآن إلا تذليل صعوبة ترخيص الأمير المطران له بالإجازة اللازمة وبعد بذل الجهد فى ذلك رخص له بأجازة لا تتجاوز ستة أسابيع

سافر « موتسارت » الصغير إلى عاصمة « بافاريا » . وأخذ يكد فى عمله ليلا ونهارا . فلما انتهى من الفصلين الأول والثانى عمل لهما تجربة نالت رضاء جميع مستمعيها • وأيقن هو بنجاح أوبراه . أما طائفة المغنين والمغنيات ومن شاهدوا هذه التجربة من أهل الفن ، فقد بلغ من إعجابهم بالتلحين أن اعتقدوا استحالة إيجاد موسيقى أقوى من ذلك للفصل الثالث ، أما الفنان الشاب فكان واثقا من نفسه يعرف تماما أنه سيبلغ الذروة فى هذا الفصل ، إذ كانت جميع موسيقاه معدة فى رأسه

وفى الصباح المبكر من أحد الأيام أطفأ « موتسارت » المصباح الذى سهر على ضوئه ، وألقى القلم من يده وهو يقول :

« أنتهيت ، وفى هذا مسك الختام »

وكانت تجربة عامة فى قصر الأمير ، أجمع الكل فيها على أن هـذه الأوبرا خير نتاج أظهره هـذا الفنان وأنها أحسن أوبرا ظهرت حتى الآن على الإطلاق

ولقد حضر هـذه التجربة الأمير نفسه وطائفة من حاشيته الأرستقراطية فأضفى على الفنان عاطر الثناء وذكر له أنه لم يبلغ تأثره بألحان ما مابلغه من التأثر بموسيقاه القوية

أصبحت هـذه الأوبرا موضع حـديث المجتمعات فى « ميونخ » وصار فنان « زالتسبورج » الشاب موضع حديث الناس فى كل مكان ، وانتظر الجميع بفارغ الصبر يوم ٢٩ يناير سنة ١٧٨١ وهو اليوم الذى تحدد لظهور الأوبرا

امتلأت جميع مقاعد الدار قبل موعد الابتداء بساعة كاملة ، وارتد مئات الناس دون الحصول على تذاكر الدخول ولم تشهد « ميونخ » ازدحام تلك الدار مثل هذه الليلة

وحدث بالقاعة ما لفت نظر الجميع ، ذلك أن أعضاء الفرقة الموسيقية قد وقفوا فجأة ، يحيون فى احترام زائد رجلا مسنا أشيب دخل عليهم حيث كانوا يجلسون وبصحبته فتاة . لقد أجلسهما الفنان فى أحد أركان الفرقة وجرى حوار فى الصالة بين الجمهور :

— من عسى أن يكون هذان الشخصان اللذان يبالغ « موتسارت »

في احترامهما ؟

— انظر اليه ، إنه يقبل يد الرجل المسن الأشيب

وسرعان ما عرف الجمهور أن هذين الزائرين هما الوالد « موتسارت» وابنته « ماريانا » الموسيقارة المشهورة

لقد حضر الوالد وابنته ليشهدا أوبرا « فولفجانج »وكان حضور الوالد دون ترخيص من الأمير المطران فهومتغيب عن « زالتسبورج » من بضعة أسابيع في مدينة « فينا » لمناسبة وفاة القيصرة « ماريا تريزا »

كان الجمهور المحتشد بالدار يمثل مختلف الطبقات . وإذ دخل الأمير مقصورته فقد انسابت النغمات ، وبدأت المقدمة وانبعثت الألحان الآلية تسبق حوادث الرواية فتترجم عنها وتستعرضها قبل فتح الستار . وقد امتزج رقيق ألحانها بتصوير الطبيعة العنيفة فمثلت الموسيقى أعاصير العاصفة أجمل تصوير حمل الأميرعلي أن يعطى بنفسه إشارة الاستحسان وارتفعت الموسيقى تدريجا من موقف إلى موقف ، ومن فصل إلى فصل حتي بلغت الذروة . ونزلت الستار فدوت القاعة بعاصفة من التهليل ، وارتفعت الأصوات تنادى :

« موتسارت ! موتسارت ! »

واضطر الفنان الشاب للظهور أمام الجمهور عدة مرات والجمهور متعلق به لا يرغب مفارقته وقد سحر منه السمع والقلب مما

وإذ انصرف القوم ، وخلت الدار ، وأطفئت الأنـوار إلا بضع مصابيح فى ركن من أركان الفرقة الموسيقية كانت تضيء فـوق الوالد « موتسارت » الذى ظل جالسا ترتعد جميع أعضاء جسمه من تأثير هذا الذى رآه من تكريم ولده لنجاح نتاجه

أقبل الفنان على والده ، وتعانق الاثنان فى صمت رهيب لم يلفظ أحدهم فيه بكلمة ، إنما ترجمت دموعهما عما كان يجول بخاطرهما .

وقد وقفت « ماريانا » إلى جانبهما تنظر إليهما حائرة وأقبلت كبيرة المغنيات تضع إكليلا من الزهر فوق رأس « موتسارت » وإذا بالوالد يهمس فى أذن ولده يقول :

أى « فولفجانج » كم كنت أتمنى لو أن والدتك العزيزة شاهدت نجاحك الليلة !

عاد الوالد « موتسارت » وابنته « ماريانا » إلى زالتسبورج . أما « موتسارت » الصغير ، فقد تخلف فى « ميونخ » ليستريح قليلا من عناء عمله المضنى الذى قام به ، وليستمتع فيها ببقية حفلات مهرجان الكرنفال

* * *

كان الأمير « هيرونيموس » مطران « زالتسبورج » يقيم فى ذلك الوقت في (فينا) وقد اعتزم أن ينتهز الفرصة ويقضى بهـا بضعة عشر

يوما يتجرد فيها من عبء الحكم وتقاليد السلطان ويتحلل فيها من قيد الوظيفة وتكاليفها .

وفى صبيحة أحد الأيام أخذ المطران الأمير يتمشى فى حجرة أعماله . هو رجل طويل القامة ، ذو عينين نجلاوين يشعان ببريق الجد والحزم ، مهيب المنظر ، لا يستطيع من يراه مرة أن ينسى هيبته ووقاره . حسن الإلقاء فى صلف، لا يسمح لمرءوسيه أن يتقربوا إليه ، أو يقتربوا منه ، فأضمروا له الحقد والكراهية

كان يعتبر الموسيقى شيئا كماليا فى إمارته ، حتى لقد كانت تحدثه نفسه أن يطرد الموسيقيين أو أن يقذف بهم إلى الجحيم، لولا أنه لا يخلو منهم بلاط فى أوربا ، وأن البلاط الدينى لأشد حاجة للموسيقى من البلاط المدنى إتماما للشعائر الدينية ، وما كان فى مقدوره أن يشذ عن التقاليد المتبعة

والآن تهجس فى المطران خواطره : ما الذى يصنعه هؤلاء الأنفار الموسيقيون فى غيبته ؟ أولئك قوم مستهترون لا ينقطعون عن الشراب ، يقضون يومهم فى السكر ، فلعلهم الآن يتنقلون من حانة إلى حانة ، حتى يطوفوا بحانات (زالتسبورج) مترنحين ، فإن هذه الشرذمة برغم معاملتها بالشدة غاية الشدة وأخذها بالعنف أبلغ العنف لم تنته عن معصية ، أو تنقطع عن مفسدة

كذلك كانت تسول المطران نفسه ، وكذلك كان ينتجى فى صدره فقرر استحضارهم جميعا إلى فينا على عجل وظل يناجى نفسه قائلا :

« ماذا يهم ان كان أفراد الفرقة ورئيسها فى اجازة الآن ؟ ذلك الشاب الماهر سأكتب له فى البريد القادم أستدعيه ليوافينا إلى فينا سريعا فقد استوفى هذا الشاب حظه من الكسل والبلادة

إنه لا شك عبقرى ، ولكنه عنيد . لماذا لا يعود إلى وطنه ؟ أراه يلتمس دائما تجديد إجازته ، ويبذل مجهوده وفنه لغير أهله وبلاده فلا يتسع وقته لأميره ووطنه . وإذن فلا بد من استدعائه ، لا لأمهد له سبيل الشهرة وإذاعة الصيت فى « فينا » مدينة القيصرية ولكن ليكون فى خدمتى وطوع أمرى »

كان صباح اليوم السادس عشر من مارس سنة ١٧٨١ مشرقا بهجا ، صفا سماؤه ، ونقيت زرقته ، فاستقبله الناس بالبشر والتهليل

وأقبلت عربة البريد تهادي فى مرورها بضواحى فينا ثم تخفف السير وهى تعبر بوابتها .

لم يكن السفر فى هذه العربة مريحا على التحقيق فقد كان المسافرون لتمهم يشجرون لتافه الأمر ، ويصخبون لأحقر الأشياء ، وهم يجهلون أن بينهم « موتسارت » الشاب ، ويتصايحون كلما ارتجت العربة ، وتزلزلت من مرورها على الأحجار ، فيضغط الركاب بعضهم

على بعض ، فتضطرب أجسامهم وترتج أدمغتهم ، ويسارع بعضهم إلى نافذة العربة يتعجل الوصول ويتبين الموقف

وصلت العربة أخيرا إلى ميدان (ستيفان) فى الساعة التاسعة صباحا ، فاندفع « موتسارت » من ذلك المركب العتيق وأعضاء جسمه تتوجع كلها من طول السفر ومشقته

وقف المارة المتسكعون فى الطرقات يشاهدون القادمين ويتغامزون عليهم ، وهى فرصة خلقت لهم موضوعا جديدا يشغلون فيه ألسنتهم ، وأفانين أدمغتهم

أمام باب القصر ألقى « موتسارت » عصاه واستقرت به النوى فتلقاه البواب ساخرا يقول :

– هيه يا سيد (موتسارت) اقترب جئت فى آخر لحظة ، قبل فوات الوقت . انه فى انتظارك فوق . يترقب مقدمك بفارغ الصبر . لقد سبقك رجال الحاشية . هم جميعا هنا من ثلاثة أيام . أسرع وبادر بالصعود الى الطابق العلوى

ارتقى (موتسارت) السلم قفزا حتى دخل البهو ، ويظهر أن طول غيبته أنساه المتبع من التقاليد فقد رغب فى دخول حجرة الاستقبال دون استئذان لولا أن (أنجل بارو) جذبه من طرف ردائه وزجره قائلا :

ـــلا تعجل فما تفيدك العجلة شيئا . وانتظر حتى يأتى دورك وأعلن خبر قدومك

جلس (موتسارت) يتميز من الغيظ ، وينتقل من مقعد إلى مقعد. وكذلك عاد (موتسارت) إلى قيود الخدمة ، وسلاسل الوظيفة ، بعد أن استمرأ لذة الحرية في « إيطاليا » و « باريس » و « ميونخ » فنانا مبدعا يفعل ما يشاء . لهذا فقد جلس طوال وقته يعض النواجذ ويصر على أسنانه كأنه يتلمظ دواء مرا

جاء دوره فناداه « أنجل باور » فنهض مسرعا ودخل حجرة الاستقبال بقلب يخفق اضطرابا

هنالك كان المطرن يتبوأ عرشه في ردائه القرمزى، رداء الكرادلة، ويداه فوق صدره والشمس تملأ الرحب بأشعتها الذهبية فتلوح ثياب المطران كأنها فى أتون من اللهب ويتلألأ في صدره صليب المطارنة وتشع من أحجاره الكريمة أضواء تمثل جميع ألوان قوس قزح

بهرت (موتسارت) هيبة المطران وأبهته فانحنى إلى الأرض صامتا وساد سكون رهيب لم يدم طويلا فقد رن صوت المطران فى حدة يقول لموتسارت : اقترب . فتقدم موتسارت خطوات صاح به المطران: قف . فوقف الموسيقار ينتظر ما يتلقاه من الخطاب والإشارة

صوب المطران إليه بريق عينيه فتمنى (موتسارت) لو تبتلعه

الأرض ولا يتلقى سهام تلك النظرات القاسية المليئة بالحطة والامتهان .

انقضت لحظة رهيبة كاد « موتسارت » يموت من هولها

— هل أنت رئيس فرقتنا الموسيقية ؟

أأنت فولفجانج أماديوس موتسارت ؟

وجه المطران إليه الخطاب فى إنكار كأنه لا يعرفه ، فأجابه الفتى موتسارت فى شيء من الشمم :

— نعم أنا موتسارت

— كدت لا أعرفك من طول اغترابك وبعادك ، أهكذا تظل بعيدا عن سيدك بعيد الدار نائى المزار تلهو وتمرح فارغ البال كسلان معربدا

غلى الدم في رأس موتسارت واشرأب ببصره إلى المطران يفحصه بأشعة عينيه الجذابتين وقال :

— عفوا يا سيدى . فما الفراغ ، ولا الكسل ، ولا العربدة من طبعى ولا هى من خلقي . أعتقد يا مولاى أنى ما أضعت لحظة من إجازتى عبثا

— أتسمى ما تأتيه من الألعاب الموسيقية عملا وشغلا ؟ إن اخوانك الموسيقيين جميعا الذين استدعيتهم الى هنا لبوا على جناح السرعة ، وأطاعوا أمرى وجاءوا مسرعين ، ومضوا هنا ثلاثة أيام . واليوم فقط تجىء أنت فكيف استبحت لنفسك هذا التأخير ، وارتكبت هذا التقصير ؟

— يا صاحب الإمارة العالية إن مواصلات البريد لميونخ تأخرت لتراكم الثلج، فتعذر على الوصول في الأوان ، كان الثلج ياسيدي مخيفا مرعبا



الأمير مطران زالتسبورج

— حجة فارغة

وأراد موتسارت أن يجيب ، ولكن المطران قاطعه قائلا :

— لا عذر ، أعرفك مدى حياتك خبيثا ، كذوبا ، مستهترا ، ثم استوى على ساقيه وصاح :

— سأنتقم منك ، وستكفر عما جنت يداك

— الأمر لك يا صاحب الإمارة العالية

وانتهى الحديث فأشار المطران بيده الي الباب فخرج الموسيقار الشاب خرج موتسارت يترنح كمن أصيب بحجر فى رأسه وقصد في التو الى الحجرة الصغيرة التى خصصت له . ارتمى علي مقعد ، وانسرح عليه هنالك ، يكاد يكون مغشيا عليه

يا للهول ! أهذا هو (موتسارت) الذى دوّى العالم باسمه، وهتفت له إيطاليا ، وفرنسا وبافاريا ؟ أهـذا هو موتسارت الذى حملته الأيدى والأكتاف أهذا هو موتسارت الذى يتلهف العالم على رؤيته ، والذى ينزل من قلب الدنيا منزلة لم يسبقه اليها أحد ؟

وى ! وى يا إرادة السماء أين المعدلة ؟ أهكذا يخضع الأتباع الي متبوعيهم ، يتحكمون فى أجسامهم وأفكارهم ومشاعرهم !!

أي زمن هذا البشم الـذى يجعل أقدار العباقرة وذوى الجهود الجبارة تحت رحمة مثل هذا الأمير المتصلف ؟

ليس لنفس أبية أن تعيش فى هذا الجو الموبوء بجهالة الغطرسة إنما يسكن الى هذا العيش نفوس الأذلاء العبابيد. أيقف موتسارت بأبواب الردهات وجدران الحجرات يحيي من يريد، ومن لا يريد، ثم لا يخطو خطوة أو يتحرك حركة إلا إذا صدر له الأمر؟ موتسارت، ذلك الرجل الفنان العبقرى الذى يصافحه خارج بلاده الملوك والأمراء مصافحة الصديق المحبوب، يقف بباب أميره ذليلا كسير القلب مهيض الجناح؟

سحت عينا موتسارت، وفاضت بالدمع مقلتاه وخر جاثيا يصيح:

— ما هذه الحياة المزعجة؟ وما هذا العيش المرير؟ ثم أجهش فى البكاء

فى هذه اللحظة قرع جرس البواب فى الطابق السفلى مؤذنا بدنو وقت تناول الطعام وكان على الموسيقار العبقرى أن يتناول طعامه مع الخدم

جلس موتسارت يسائل نفسه أينزل إلى مائدة الخدم، يشاطرهم الأكل، ويساهم فى طعامهم؟ أم يعف أنفة، ولو بلغ به الأمر إلى الصيام

كان الحكم للمعدة فأصدرته قاسيا مؤلما: فإنه لم يذق طعاما طوال يومه، وقد استنفد السفر نقوده جميعها فلم يبق معه إلا دريهمات لا تغنى من جوع. ولو أن المطران صرف له المتأخر من مرتبه لاستطاع أن يجتنب مقعده المزرى من مائدة الخدم، ولكنه لم يقبض منه إلا الخشونة والازدراء

إذن فلا بد من الذهاب إلى مائدة الخدم. هلم اليها . .

كفاح نفسى

فى مساء اليوم الذى وصل فيه « موتسارت » إلى « فينا » حيث قابل أميره المطران ، أقام المطران فى قصره حفلة موسيقية

كان أصحاب المجد والشرف من الضيوف مجتمعين فى بهو التشريفات وسمو المطران يستقبلهم بما فطر عليه من الجلال والعظمة . ولقد يدهش المتصلون به من أن هذا الرجل الموشح وشاح الجلال والهيبة والوقار يسف أحيانا إلى منزلة السوقة والرعاع من أبناء شعبه

وقف الناس فرقا ، كل جماعة فى ناحية ، والمطران ينتقل بينهم يبالغ فى تحيتهم وإكرامهم ، ويعرف بعضهم الى بعض ويبادر إلى استقبال من تأخر منهم ، الى غير ذلك من أسباب المجاملة واللياقة فى مثل هذه الحفلات

وفى هذا الوقت وقف « موتسارت » على المسرح يتحدث إلى « سيكاربلى » وهو مطرب إيطالى سيغنى الحفل بصوت نسائى . هنالك أقبل المطران فى صلف وغطرسة وأشار الى موتسارت « ابتدىء » فتأهب الموسيقيون وانطلقوا يعزفون وتقدم (سيكاربلى) يغنى بصوته الناعم النسوى و (موتسارت) يدق البيانو متماشيا مع غنائه والحفل ضجر متبرم يهزأ من هذا الرجل القوى المتين يتخنث بصوت النساء ولا يخزى فتغامزوا عليه وصدرت من بعضهم عبارات التهكم وغطى السيدات أفواههن

عناديلهن إخفاء للضحك الذى ملأ أشداقهن . وفى هذه الجلبة النفسية الجائشة كان توقيع موتسارت على البيانو آية فى الدهشة والإعجاب ، ولو أنه كان يدق ارتجالا بغير نوتة حتى إنه لفت الجمهور اليه ونال إكبارهم وارتياحهم

لحظ المطران ما وصل اليه الموقف من الخزى والسخرية وكاد يصعق لولا أن تماسك وفكر فى علاج ينقذ الموقف فصاح بأعلى صوته « برافوا سيكاريلى برافو » ثم صفق وأسرف فى التصفيق . ما هذا الصوت الذى يدوى فى القاعة كالرعد فتجاوبه أصوات المحتشدين بما كاد يزلزل أركانها ؟

ذلك صوت الأمير (شوارتسبورج) يهتف عاليا « برافو أستاذ موتسارت برافو » فيردده الحفل ترديدا عاليا

ضاقت الدنيا بالمطران واضطربت حواسه وتملكه الهياج لولا بقية من الوقار أسكتت ثائرته وألانت حدته . فاندفع الى فرقة الموسيقى ، وأشار اليها بعينيه أن تنصرف فشرع أفراد الفرقة يلمون شعثهم ويجمعون أمتعتهم استعداداً للخروج . ولكن السيدة النبيلة (تون) تقدمت الى المطران فى خفر وحياء وتوسلت اليه فى ابتسامة فاتنة تقول :

ــ هل يتفضل صاحب النيافة المطرانية فيصدر أمره الكريم الى موتسارت فيوقع لنا قطعة من موسيقاه الساحرة ؟ إننى باسم نبلاء هذا

الحفل الكريم ألتمس منك إجابة هذا الرجاء لنمتع أرواحنا و نسقيها سلسبيل فنه الفياض الذي يروى الأرواح ويحي الأشباح

— سيدتي النبيلة ، من كل قلبي أستجيب لك ، ولا أرد لك طلبا ، لكن الفنان « موتسارت » وصل اليوم متأخرا ، وأظن أنه غير مستعد

— يا مولاى الأمير ، « موتسارت » دائما مستعد ، فإنه من البراعة بحيث يستطيع أن يخلق في الموسيقى متى شاء ، وأنى شاء ، فاسمح لى أن ألح مرة أخرى فى هذا الطلب

وقد عزز رجاءها جماعة النبلاء ، واحتشدوا حول المطران يزكون الطلب ، و كلما أبدي عذرا فندوه ، حتى أرغم ، إزاء إلحاحهم على أن يستجيب لهم ، ولكن على مضض ، فذهب إلى « موتسارت » يسأله :

— هل لديك قطعة صغيرة جاهزة ؟ قطعة مختصرة ؟ إسمع ، أنت تعرف مقتى لمطولاتك . تكلم !

— عندى قطعة (روندليتو) ، صغيرة ، أعددتها خصيصا لهذة الحفلة وأظن يا صاحب النيافة المطرانية أنها تتفق مع رغبانكم

— حسنا ، ابتديء . وأسرع ،وانته ، حتى نقوم .

استوى الحاضرون فى مقاعدهم متوجهين الى المسرح ، وانشط « موتسارت » إلى العمل ،فأنطق الموسيقى بيانا ، وأسالها حنانا ،وأشجى سامعيها نغما ، وجلاّها بينهم نما ، وأثر بها في أذهانهم ، وامتلك مشاعرهم

وسيطر على أجسامهم، حتى كانوا يتموجون لتموجاتها ، ويقفزون لقفزاتها ويتمهلون لتمهلها ، ويتباعدون إذا ابتعدت ، ويمتزجون إذا امتزجت ، حتى إذا انتهى من قطعته قطع الناس أيديهم بالتصفيق ، وحناجرهم بالهتاف والصياح بطلب الإعادة ، و « موتسارت » صامت يترقب أمر المطران ، والمطران معرض عنه ، والتهليل ، والهتاف ، والصياح لا ينقطع فكان موقفا عجبا . . عازفو الكمان يترقبون أمر أستاذهم ، وأستاذهم يترقب أمر سيده ، وسيده مفض عنه متثاقل ، والجمهور مصمم على الاستعادة مهما كلفه هذا التصميم من التضحية .

هنالك نفد صبر « موتسارت » فقفز إلى المطران يسأله في لهفة وحيرة :

— سيدى صاحب النيافة ، أتسمحون بالإعادة ؟

فصاح به المطران : كيف تسأل هذا السؤال ؟

ففهم « موتسارت » من لهجة المطران الرضاء والقبول .

وما كاد « موتسارت » ينتهى حتى التف به الضيوف ، يجاهد كلهم أن يحظى بمصافحته ، وأن يلتمسوا منه ، فى إلحاح وحرارة ، أن يتقبل دعواتهم للغداء ، والعشاء ، وحفلات المساء ، وهو يتودد لهم جميعا ، ويشكر لهم جميل عطفهم ، ورقة شعورهم ، وعذوبة ألفاظهم ، ويعتذر لهم عن إجابة دعواتهم ، بما يضطر إليه اضطرارا من استئذان المطران

وسماحه ، فإنه سيده الأعلى

انصرف السادة المدعوون ، وجمع الموسيقيون آلاتهم ، وأمتعتهم ، وغادر الكل بهو الاحتفال ، إلا « موتسارت » ، فقد بقى منفردا . وقف يغوص في بحار الفكر ، يعلو حينا إلى مناط السعادة ، ويهبط آنا إلى مدب البؤس ، فإذا استبشر ، وحلا له الأمل ، ناجى نفسه :

— بداية رائعة ، تبشر بالرفعة والسمو ، كل شيء فيها جميل ، اجماع على الاعتراف بالفضل ، وهو أول أسس العظمة ، وطهارة فى إعلان الثقة ، وهى أولى دعائم النجاح . أحمدك اللهم ، لقد عوضتنى عن جحود الفرد بر الجموع .

فإذا أحست نفسه البؤس لذكرى المطران ، انتحى فى صدره يقول :

— ويلى ! ماذا عملك ضعيف الحيلة إذا بطشت به قوة الجبار ؟ هذا أمير مسلط ، تفزعه شهرتى وتقض مضجعه سمعتي ، فهو لا يفتأ يناوئنى ما واتته قدرته ، وساعفته حيلته . أنى اتجهت صدّ عنى عقابه ، وحيثما سرت نزل بى عذابه . حتى إنه ليجلسني إلى مائدة الخدم أتناول طعامى معهم وأغص بلقماته .

أى ربى : إليك أفوض أمرى وأنت أحكم الحاكمين .

وهكذا كانت تدور برأس « موتسارت » هواجسه وتتشعب فيه خيالاته

وبينما كان « مونسارت » موزع الفكر ، تتنازعه الخواطر ، إذا بحركة تشعر بقدوم المطران منغص عيشه ، ومكدر صفوه ، حتى فى لذيذ أحلامه لا يفر من هجماته ، ولا ينجو من تهماته .

أقبل المطران الأمير وصوب أقسى نظراته إلى فناء البهو حتى إذا لمح « مونسارت » قصد إليه مندفعا ، وحملق فى وجهه كأنما يريد إحراقه بشعلة عينيه الملتهبتين . وجاهد « مونسارت » قواه ليرفع بصره إلى المطران فلم يقو ، فأسبل عينيه . وسادت برهة رهيبة من السكون ، قطعها المطران بحديث بطىء تشف كل نبرة من نبراته عن الحقد والغيظ :

— ما أرذلك أيها الماجن ! كيف تجرؤ على مواجهة ضيوفي النبلاء فتتحدث إليهم ! أبلغت بك الصفاقة هذا الحد ؟ ما الذى يصوره لك خيالك ووهمك ؟ أتزعم أنك أصبحت من الشرف والنبالة بحيث يضع الأشراف أيديهم فى يدك الملوثة القذرة ؟ يا لسوء ما صوره لك تفكيرك الفاسد ، وزعمك الباطل . ولكن لا عجب أن يتعلق الرعاع أمثالك بأهداب العظمة يتمحلونها تمحلا .

— يا صاحب الإمارة العالية أرجو عفوك وغفرانك إن السادة هم الذين صافحونى ومدوا إلىّ أيديهم وليس من المروءة فى شىء أن أرد أيديهم أو أتغاضى عنها .

— وقاحة مبتذلة ينثرها الولد الخبيث على سمعى . جنون يصوغه

هذا الحقير كلمات وعبرات ...

— يا صاحب الأدب العالى ، ما يليق هذا الأسلوب فى مخاطبة رجل فنان ، جاب فنه « روما » و « باريس » و « لندن » و « فينا » وحلق فى سمائها جميعا . .

— فنان ! ؟ ، كان لى أن اضحك لولا أن موقفك محزن مزر . . فنان ! ؟ أتدعو نفسك فنانا أيها الأمعة المنكور ، إن أنت إلا محقور دنس

— قد يكون هذا رأى نيافتكم ولا حيلة لى فى اعتقادكم ولكن يا صاحب الأدب العالى ، ما كان رأى نيافتكم فرضا يعتقده الناس ويدينون له ، إن الناس قد عرفوا قدرى وأحسنوا التعبير عنه ، و . . .

— اخرس ، أيها الوقح ، أترفع صوتك فى وجهى ؟ ثم لا ينقطع لسانك بين شدقيك ؟ سأريك كيف أخفت صوتك ، وأمحو أثرك . . . ولكن من الذى أمرك أن تعيد تلك القطعة الموسيقية المزعجة التي سميتها « روندليتو » ؟

— استأذنت نيافتكم فأذنتم لى .

— استأذنت حقا ، ولكني لم آذن لك . وإنى أعاقبك على ادعائك حقا لا تملكه ولا يليق أن تمالكه . سأدفع لك هذه المرة ثلاث دوكات « عملة ذهبية قديمة » كباقى أفراد الفرقة الموسيقية. خذها ترن على الأرض وتتدحرج تحت قدمى . . . وإذا توقحت ، أو سولت لك نفسك الشريرة

إساءة الأدب مرة أخرى ، فإنى أحرمك من مرتبك جميعه وأخصم استحقاقك كله

ثم أدار المطران ظهره للفنان وانصرف فى خطى متئدة فيها الكبرياء والعظمة و « موتسارت » مبهوت مذهول يكاد يقتله الغضب أو يسوقه إلى الإجرام وخيل اليه أن ينقض على هذا المطران فينتزع رأسه من جذورها . ولكنه ما لبث أن سكنت ثائرته ، وهدأت أعصابه فإذا بطنه يئط من الجوع وأمعاؤه تتلوى منه فجثى على ركبتيه يبحث عن الدوكات الذهبية الثلاث ، حتى يكون معه شيء من النقود على الأقل فى أول يوم من وصوله « فينا » إلى أن يحكم الله

***

كانت الموسيقى في ذلك الحين ، أكثر أنواع الفنون محبة فى قلوب جميع طبقات الشعب فى فينــا وكان للأمراء فى بيوتهم فرق موسيقيــة خاصة يرعونها ويسهرون عليها وكلما كان الأمير غنيا واسم الثراء كانت فرقته الموسيقية آية فى الكمال والإبداع وكان بعض هؤلاء الأمراء على شغفهم بالموسيقى ورعايتهم لها لا يختلطون بأفراد الشعب من الطبقات الوسطى ضنا بموسيقاهم عن كل أذن غير عالية. ولم يكن غير سيد الأمراء وراعى الشعب ـــ القيصر — من يسمح فى الأعياد الرسمية السنوية بفتح أبواب سرايه العامرة لكل فرد من أفراد رعيته أميرا كان أو صعلوكا

فيستمتع الجميع ببر الملك ورحمة السلطان

كانت حفلات القيصر الموسيقية الشعبية قذى في عين بعض المتغطرسين من النبلاء ، ولكن ما حيلتهم أمام إرادة القيصر صاحب الصولة والسيادة العليا في الدولة ؟ ثم ماذا يفيد حنقهم والقيصر في هذا صلب الرأى حديد العزم ؟ اللهم لا شيء إلا أن يحتمل النبلاء على مضض وإلا أن يكظموا الغيظ مجاملة ونفاقا ، وكان أكثر ما يغيظ النبلاء أن يساوى القيصر بينهم وبين العمال وأرباب الحرف ، وأن يوزع حبه ورعايته عليهم جميعا لا ميزة لأمير على حقير . وكان القيصر على الأخص لا يمنح الأمراء الدينيين من الرعاية والبشاشة ما يمنحه أهل الطبقات الأخرى . ذلك بأنه كان يعتقد أنهم أكثر الناس بلادة وكسلا ، لذلك كان فريق الأمراء الدينيين أكبر عدو ظاهر للقيصرية

ولقد كان مطران « زالتسبورج » غصة في حلق القيصر لا يسيغه ولا يقبل عليه وكانت أخبار ذلك المطران تصل إلى علمه فيغص لها . ولكن سلطانه ما كان يمتد إلي سلطان وقف (زالتسبورج) وإذن فكان يكتفي بأن يظهر للمطران عدم رضائه عنه فكانت رقاع الدعوات إلى الحفلات التي يحييها المطران تهمل ولا يلتفت إليها ، وكان القيصر يتعمد عدم دعوة المطران إلي حفلات البلاط

وكان المطران يعلم ذلك جيدا ويقصر همه علي صد الطعنات التى

كان يتلقاها من القيصر وأن يحاول أن يصوب إلى القيصر طعنات ترد عاديته فكان ينتهز فرصة إقامته بفينا في كل سنة بضعة أشهر ويتظاهر بالأبهة والعظمة محاولا أن يبز في عظمته جلال البلاط ووقار الحاشية وإشدة غطرسته وكبريائه التي لا حد لها وصفاقته الغريزية كان لا يستطيع ان يتبين أن محاولته تلك كانت موضع السخرية والاستهزاء وأن تنقلاته العديدة بين المدينة وضواحيها في عربة الحفلات الرسمية الحكومية الموشاة بالذهب ، أصبحت مبتذلة يستنكرها الناس ويتخذونها وسيلة للضحك والاستهزاء . إنما كانت الفرقة الموسيقية في بلاطه هي وحدها التي يستطيع أن يفاخر بها ويكاثر بها القيصر وأكابر أهل فينا جميعا . وما كان له في هذا فضل ولا جميل وإنما يرجع الفضل في تأليف هذا الفرقة وتدعيمها بموسيقيين من الطراز الأول الى المطران السابق الذى خلفه هذا المطران على الإمارة فقد كان يدقق في اختيارهم ويترسم سير حياتهم ويطبق عليهم شروط الجدارة التي يتحتم توافرها في فرقة الإمارة ويدخلهم في الوقف متى استأهلو رضاءه الفنى ، كأسرة « مونسارت »

ولقد أصبح (مونسارت) الشاب رئيسا لتلك الفرقة ولكنه غدا أيضا نابغة لا يشق له غبار وعبقريا لم يظفر العالم بمثله

ولئن كان في خدمة القيصر الموسيقار « بنو » و « ساليبرى » وهما

من فنانى الطبقه الأولى إلا أنهما كانا إلى جانب « موتسارت » نقطة من بحر لا يغنيان فتيلا . وأنى لهما أن يسايرا ما اكتسباه غريزة الموهوب!!

لقد كان « موتسارت » آية أعجز الله بها أهل عصره وأظهر به معجزة من معجزاته الفنية التي بهرت العصر ، وسحرت الفكر ، وخلدت الموسيقى بقاء الذكر .

ولقد استغل المطران هذه المعجزة وراح يتباهى بها فخورا ، ولكنه لم يفخر بمواهب « موتسارت » وعبقريته ، وابتكاره وتفننه ، فإن شخص «موتسارت» لم يكن فى حسابه ولا مما يفكر فيه ، وإنما الذى كان يعنيه أنه كان من خدمه وأن الأمراء والنبلاء يثنون عليه ويمتدحونه كرئيس لفرقته الموسيقية ، وسواء أكان الرئيس الممدوح « موتسارت » أم غيره فإن الذى كان يفخر له ، وتنتفخ به أوداجه إنما هو الثناء الموجه إلى رئيس الفرقة أيا كان . وكلما أغرق الأمراء والنبلاء والوجهاء فى الثناء عليه جرته الخيلاء إلى الشعور بأنه « قيصر المدينة الصغيرة » ولا يليق بمقامه السامي أن يهتم بخادمه الموسيقى ، وكان يتخذ من مديح القوم فى الفرقة وسيلة يعلن بها على الملأ كبرياء مطران « زالتسبورج » وأمير مقاطعتها ، وما يحاط به من العزة والظفر

لم يكن يستحى من ذلك أو يخزى له ، ولم يرد أن يفهم أنه مدين لفرقته الموسيقية بما بلغ من الشهرة وبخاصة فى الأوساط الموسيقية في

(فينا)، بل كان لقحته وسوء خلقه يتباهى بأنه تفضل فأكسب الفرقة الشرف بقبول رجالها فى خدمته . وأي شرف أكبر من أن يكونوا من أتباعه وخدمه ؟ أليسوا مربوطين على الوقف تصرف لهم رواتب شهرية ؟ أليست الرواتب تصرف محاصيل زراعية لا دنانير قيصرية ؟

الحق إن ذلك الشيطان كان يقبض عليهم بيد من الفولاذ، ويتصرف فى أعمارهم بقاء، أو فناء، فقد كان يتعاقد معهم طوال حياتهم وإذن فقد كان يتعذر أن يفسخ عقد بإنذار أو أن يتخلص موسيقار وفاق إرادته.

أما « موتسارت » فقد كان بالنسبة للمطران حرا بعض الشيء ذلك بأنه كان موظفا يتقاضى مرتبا نقديا وله فى عقده حق الإنذار وبيده نسخة مكتوبة من العقد . ولكن هل كان المطران يأبه لشيء من هذا أو يعيره التفاتا ؟ كلا بل كان يغلظ فى معاملة « موتسارت » غلظته فى معاملة سائس الخيل وحارس الاسطبل سواء بسواء وهكذا كان ديدن أمراء ذلك العهد فقد كان من طبعهم أن يسوموا موظفيهم المهانة والازدراء .

تألم « موتسارت » لذلك ، وعض الألم شغاف قلبه واستنجدته حريته السجينة المغلولة أن أطلقني وحل عقالي تدو في الدنيا روائعك الفنية وتخلق فيها مبتكراتك . فكان يستنفد الصبر فى ترقب ذلك اليوم الذى يحطم فيه قيد العبودية ويكسر أغلالها، وله فى موهبته الفنية خير

ضمين . غير أن « موتسارت » كان دائما مترددا يجرى وراء عاطفة خفية ترسم فيها صورة أبيه البر الرحيم الذى يتفانى « موتسارت » في حبه والتقديس له فكان يخيل اليه أن خطوة واحدة يخطوها نحو الحرية تقصي والده عن مركزه وتنحيه عن وظيفته وتقضى على سعادته التى تعودها ، بل ليس ببعيد أن ينتقم المطران من الأب تشفيا من الابن .

ولكن غطرسة المطران وعجرفته باتت جدا لا يطاق، بل ويستحيل احتماله . وإذن فقد وجب التبصر فى الأمر . وكثر التشاور بين الولد وأبيه لعلهما يهتديان الى وسيلة تزيح عنهما تلك الغمة . غير أن الوالد كان فى كل مكاتباته يلتمس حسن النية فى أعمال المطران وينسب تصرفاته التعسفية الى طبيعة نشأته واحتراسه من المفاسد التى جر اليها تهاون سابقيه ثم ينصح بعد ذلك الى ولده ألا يتعجل الأمر ويتضرع اليه فى حنان أبوى أن يصبر ويخضع لإرادة الله ويتحمل تجرع الغصة . والحق ان أخوف ما كان يخافه الأب أن يشتد الضيق بالفنان فيتخذ سبيله الى الجبال والوديان هربا .

غير أن « موتسارت » تجرع من كؤوس الصبر ما غص به وشرق به حلقه . فنبا سمعه عن أن يصيخ لنصائح أبيه هذه فينا بأجمعها تقبل عليه وتهتف له ، وكلما زاد تملق الناس به وإشادتهم بذكره ، زادت غطرسة المطران وصلفه ، فدفعت بنفس « موتسارت » الى النفور والوحشة ،

وجذبته إلى مجاميع (فينا) يتنقل من جماعة لأخرى فيتلقاة أهلها بما يليق
به من عزازة وإجلال

دارت الهواجس برأس « موتسارت » وانتحى يناجي نفسه : كل شيء معقد . ماذا ؟ أأظل أتحمل تلك الشدة بكمالها ، وأتلقاها بأصبارها، ولا أبقى بفينا إلا حينما بقي بها المطران ، ولا أنجو يوما من عسف ذلك الوحش الإنساني الذي يسومني الخسف والهوان حتى أصبحت لا أحس إن كنت أنسيا يستحق العيش أم سائمة ترعى الكلأ ، وتطعم الحشائش ؟ أم أتحرر من ذلك الاستعباد وأنعم بتقدير شعب هذه المدينة ونبلائها ؟ يارب . أما لهذا التبلبل حد يستقر عليه ،اللهم إن هذه السعادة التي تتلقاني هنا من مختلف النواحي ، حرام أن أفرط فيها أو أوليها ظهري .
« موتسارت » كن يقظا واهزأ بهذه العقاب

إذن فقد انفصل « موتسارت » عن خدمة الأمير المطران واضعا مستقبله وديعة بين يدى الله أرحم الراحمين

أوبرا خـــالدة

اعتزل « موتسارت » خدمة الأمير المطران ، فأقام بفينا فى مسكن متواضع بمنزل يطلق عليه اسم « ناطح السماء » ، وهو نفس الاسم الذى أطلق على الشارع القائم به ، وذلك لأنه كان يرتفع صعودا إلى درجة كبيرة . وما تحلل الفنان من استبداد أميره ، وقيود الوظيفة فى فرقته حتى بدأ يشعر بحريته ويتجلى صفاء طبيعته فى مؤلفاته وألحانه

ولقد كان من مرح أهل « فينا » وفي جمال ضواحيها الرائع ما ليس بعده مطمع لفنان . وكذلك كانت « فينا » مركزا عاما لأمهر الموسيقيين ، وأساطين أعلام هذا الفن فى أوربا قاطبة . كان يعيش فيها وقتئذ الموسيقار الخالد « جلوك » كما كان يتردد عليها من حين لآخر الموسيقار الأكبر « جوزيف هايدن » ، وكان لا يزال رئيسا لفرقة « الإمارة الاسترهازية » بمدينة « أيزنشتات »

أصبح على « موتسارت » أن يسعى لرزقه وتوفير كفافه فلم يكن بد من قيامه ، على كره منه ، بإعطاء دروس فى البيانو تلك الكراهية التى تجلت فى مدينتى « مانهايم » و « باريس » من قبل . وكذلك أخذ يقدم لتجار الموسيقى ، وناشرى مطبوعاتها مؤلفاته الموسيقية ، وألحانه الخالدة ، نظير دراهم معدودة ، وأجر تافه . ولكن كان فيما يقوم به من

حفلات العزف بالبيانو فى قصور أشراف « فينا » ونبلائها ما عوض عليه هذا الغبن ، وأغدق عليه المال وفيرا

إذن كان دخل « موتسارت » لا بأس به ، وكان يمكن أن يزيد على حاجته ، لولا أنه شاب أغرته ملاهى « فينا » وسحرته مباهج تلك المدينة المرحة . فكان ينفق أكثر مما يكسب ، ويظل فى جميع حالاته الفنان المعدم الفقير ، ولكنه كان برغم ذلك الفنان المتعلق بفنه ، فطالما قضى الليل كله جالسا أمام آلة البيانو يعزف ويبتدع غير منصرف إلا لفنه الذى استحوذ عليه وتملك مشاعره

وكان القيصر « جوزيف الثانى » مشغوفا بالموسيقى الإيطالية ، يرعاها فى بلاطه رغم اعتقاده أن الموسيقى ليست لمجرد اللهو والتسلية بل إن لها لغرضاً أسمى ، وغاية أشرف . كان يدرك أثرها العظيم فى تهذيب الشعب ، وتثقيفه وقوتها فى استنهاض الهمم وشد العزائم ، وقد حمله هذا التفكير على وجوب الانصراف عن الفن الإيطالى الذى غمر بلاطه وأن يستعيض عن الأوبرات الإيطالية ذات مناظر الرقص الباهظة التكاليف بتأسيس مسرح حكومى للشعب تمثل فيه أنواع « الأوبريت » والأوبرات الهزلية التى يتفهمها الشعب ويستمتع بها ، ويتذوق معانيها . ولم يكن بالطبع فى وسع الفنانين الإيطاليين الذين فى بلاطه تحقيق هذا الغرض ، فقد كان لا بد لتحقيقه من عبقرية موسيقية

لفنان وطني يجمع إلى مواهبه الفنية تغلغل الشعور الشعبي فيه . إذن لم يكن في جميع « فينا » غير موتسارت الذى يستطيع حمل هذا العبء ، وتحقيق هذا الغرض

كاف القيصر ، الفنان « موتسارت » تلحين أول أوبرا هزلية تمثل في المسرح الشعبي وقدم إليه شعر هذه الرواية المسماة « بلمونت وكونستانسه » أو « الاختطاف من السراى » وهى من وضع « برتسنر » مدير المسرح الهزلي

طار « موتسارت » فرحا بهذه الأوبرا الألمانية ، يقوم بها مغنون ومغنيات من الألمان . وكان هذا أقصى آماله وأحلى أمانيه

فلم يكد يتسلم شعر الرواية حتى عكف منذ الليلة الأولى على دراستها وتفهم مواقفها وصياغة ألحانها بصفة عامة . وبدأت الألحان تجرى في رأسه ، يصورها فى فكره . وكان « موتسارت » سريعا فى كل شيء ، سريعا فى حركته ، سريعا فى أكله وشربه ، سريعا فى كلامه ، سريعا فى لباسه ، فلا عجب أن نراه الآن سريعا في إنجاز روايته . كان يستيقظ في الصباح الباكر وهو مشغول باللحن ، فاذا ذهب إلى الحمام فكر فيه ونغّم ، وإن وقف فى غرفته يحلق لحيته ، ترك رغوة الصابون تعلو وجهه وسار في الحجرة جيئة وريحة يلحن وينغم ، فإذا أعجزه التنغيم بصوته نقر بأصابعه على قبعته ، أو جزء من جسمه ، أو على المنضدة أو المقعد

كأنما يعزف بآلة البيانو ، وما يكاد اللحن الذي يبتدعه يستقر فى فكره حتى ينسجم فى رأسه نغمات متوافقة يؤديها الغناء بمسايرة جميع آلات فرقته الكبيرة . فإذا استقر ذلك فى فكره أسرع إلى تدوينه وإثباته على القرطاس

وكان « موتسارت » ينظر إلي تلحين تلك الأوبرا نظرة وطنيـة سامية إذ كان يعتقد أنه يعمل عملا قوميا بهذا الخلق الجديد ، وإن العناية الالهية قد اختارته لتحقيق هذا العمل الذى ستنتصر به الموسيقى الألمانية على الموسيقى الإيطالية ، فكان هذا دافعا له على بذل أقصى الجهد فى التلحين وحافزا له على إتقانه وتجويده

وكان هناك دافع آخر يسوقه إلى هـذا الإتقان والتجويد ، بل والى سرعة إنجاز هـذا التلحين ، ذلك هو أمله فى الاقتران بحبيبته « كونستانسه » .ومن أعاجيب المقادير أن يلهم مؤلف الرواية فيسمى بطلتها هذا الاسم الذى كان أحب الأسماء إلى قلب « موتسارت » .

وكانت « كونستانسه » محبوبة الفنان الشاب ابنة لأحد الكتبة الموظفين تعرف إليها فى مدينة « مانهايم » حيث كان يتردد فيها على أسرتها ، إذ كانت شقيقتها إحدي مغنيات مسارحها . وإذ انتقلت الشقيقة المغنية إلي مسارح « ميونخ » ثم الى مسارح « فينا » وقد كانت هى عائلة أسرتها بعد وفاة والدها كان لزاما على تلك الأسرة أن تنتقل معها فتقيم بفينا

كان « موتسارت » شـديد التعلق بكونستانسه ، كثير الوله بها ، وكان أقصى آماله الاقتران بها ، ولكن والده كان يرفض الترخيص له



كونستانسه

فى ذلك لعدم عمله فى وظيفة ثابتة أو وجود إيراد ثابت يضمن حياته الزوجية كذلك كان رأى والدة « كونستانسه » فقد كانت تعارض فى هذا الزواج لنفس هذه الأسباب

لذلك كان (موتسارت) يؤمل أن يكون نجاحه فى هذه الأوبرا الجديدة ضمينا له فى التغلب على هذه العقبات المادية ، فيتمكن من تذليلها ويقترن بمن يحب

كانت هذه أحلام حلوة تجرى فى رأس (موتسارت) أثناء تلحينه لهذه الأوبرا التى وهب نفسه للعمل فيها فصرفته عن العالم ولم تدع له مجالا للالتفات الى ما حوله



ساليبرى

فقد كانت تحاك حوله فى الخفاء دسائس وتوضع العراقيل فى طريقه ، يقوم بها الفنانون الايطاليون ومن ينتمى اليهم

فى بلاط القيصر ،وعلى رأسهم جميعا الموسيقار الإيطالى « ساليرى » رئيس فرقة البلاط برغم ما كان يتظاهر به لموتسارت من صداقة وإخلاص

كان « ساليرى » موسيقيا بارعا ، وفنانا موهوبا ، نشيطا منتجا ، قد يكون ذا قلب طيب ليس من طبعه الإساءة والشر ولكن ما حيلته هو وأبناء قومه الموسيقيون الإيطاليون الموجودون فى بلاط القيصر ، ما حيلة هؤلاء جميعا أمام هذه العبقرية الفنية الجبارة التى تأبى إلا أن تنسج على شهرتهم خيوط النسيان وتلقى نتاجهم فى زوايا الإهمال ؟

لقد حاول «ساليرى» قبل أن يصدر القيصر أمره للفنان موتسارت بتلحين تلك الأوبرا أن يصرف القيصر عن هذا الرأى وأن يقنعه بالعدول عنه ولكنه فشل، وإذن فلم يبق أمامه هو وشيعته الا أن يعملوا على عرقلة ظهورها على المسرح فبذلوا فى هذه السبيل أقصى جهدهم ولكن القيصر تمسك بضرورة التعجيل بظهورها فظهرت فى يوم ١٢ يوليـة سنة ١٧٨٢

استقبل الجمهور هـذه الأوبرا الجديدة استقبالا باهرا ، حتى لقـد استعيد الكثير من مقطوعاتها غير مرة ، وشد ما تجلت رغبة الجمهور فى ألا تنتهى هذه الموسيقى الساحرة حتى يظل سابحا فى نغماتها الحلوة

إذن كان نجاح «موتسارت» عظيما وفوزه قاهرا ، و كان هذا النجاح قذى فى عيون الشيعة المعارضة التى لم يقعدها هذا النصر عن الاستمرار

فى مضاعفة مجهودها لحبك الدسائس ، ووضع العراقيل أمام هذه المسرحية حتى لقد ائتمروا بها مع بعض المغنين والمغنيات ليقتلوها عند إخراجها المرة الثانية فتلاعبوا بألحانها أثناء الأداء ففشل الفصل الأول . ولكن برغم هذا كله فقد تجلى صدق القولة الحكيمة (إن الحقيقة لا بد أن تنتصر لأنها تستطيع الانتظار) فقد كتب الله لهذه الأوبرا النجاح برغم ما حيك حولها من الدسائس وما وضع فى طريقها من العقبات بل لقد بلغ من نجاح هذه الرواية الخالدة أن تكرر تمثيلها من شهر يوليه حتى نهاية ذلك العام ست عشرة مرة فى مدينة (فينا) وحدها . وقد أصابت مثل هذا النجاح فى (هامبورج) و (ليبزج) وغيرهما من كبرى المدن الألمانية التى استقبلتها استقبالا باهرا ونجحت فيها نجاحا عظيما

كتب الفوز لتلك الأوبرا الخالدة حتى لقد استدعى القيصر الفنان « موتسارت » وأثنى عليه مظهرا له إعجابه بموسيقاه وكان سرور « موتسارت » بذلك شديدا ، لا لنجاحه الفني فحسب ، ولكن لتيسير زواجه « بكونستانسه » فقد سمحت لهما والدتها بذلك ، أما الوالد « موتسارت » فقد رخص لهما أيضا فيه ولكن على الرغم منه، ذلك بأنه كان يعتقد أن الحب لا يكفى وحده للسعادة الزوجية ، وأن ولده وزوجه كلاهما معدم حتى كان يشبههما فى فقرهما بفأر الكنيسة . وما مدى استقرار حياة زوجية تبنى على رحمة الشعب فى رضائه وغضبه ، وتتأرجح بين

نجاح نتاج الفنان وفشله ، ولما يحصل حتي الآن على وظيفة ثابتة ؟ إذن كان من الجنون أن يقدم « موتسارت » على فعلته ، لهذا كان الوالد فى داخليته غير مطمئن لهذا الزواج ، ولو أنه رخص به فتم فى ٤ أغسطس سنة ١٧٨٢ ولما يمض على ظهور أوبراه ثلاثة أسابيع .

وكان « موتسارت » ككل فنان عبقرى ، لا يعبأ كثيرا بالمادة . كان مرحا بطبعه ، فإذا عرض له ما ينغصه فسرعان ما تجده فى اللحظة التالية مرحا منشرح الصدر . وبلغ من زهده فى المال أن كان يقوم بتأليف الكثير من الألحان لأصدقائه ومعارفه من الفنانين دون مقابل ، كذلك كان يستقبل فى منزله مهرة الموسيقيين الغرباء الذين تعوزهم المادة ، فيقتسم معهم مسكنه ومطعمه وماله ، ويلحن لهم ، ويقيم لهم الحفلات دون مقابل وقد عرف الكثير من هؤلاء كيف يستغلون هذا الفنان الطيب القلب استغلالا ينبو عنه الخلق الفاضل

وكانت «كونستانسه» شديدة الحب لزوجها ، طيبة القلب خبيرة بطبيعته عليمة بأخلاقه وعاداته ، فبسطت له فى حياته الزوجية بساط السعادة قدر ما تسمح به حالتهما ، وحاولت أن تسيطر عليه فى حياته فكانت تنجح حينا ، وتفشل أحيانا

وتغلبت على « موتسارت » عادة العمل بالليل ، وبالغ فيها ، فكان كلما شعر بهدوء الليل وسكونه استيقظ فأضاء مصباحه وظل وحده

يعمل ويبتدع في الألحان حتى الصباح . كانت هذه عادة تمدها « كونستانسه » عادة قبيحة ، وقد حاولت عبثا أن تصرف زوجها عنها محافظة على صحته ، ذلك بأن « موتسارت » وقد عجز عن استغلال أوبراه الجديدة استغلالا ماديا فقد ظل فقيرا معدما ، وكان عليه لتحصيل قوته أن ينصرف في الصباح المبكر إلى تلاميذه واحدا واحدا يعلمهم العزف بآلة البيانو ، ولم يكن هذا بالعمل اليسير في مدينة كبيرة كفينا

وزادت فاقة « موتسارت » وضاقت به السبل ، فإن أعداءه وفي مقدمتهم « ساليري » قد نجحوا نجاحا كبيرا في صرف القيصر عن فكرته في إحياء الفن القومي والعودة به إلى الفن الإيطالي ، وبذلك لم يعد أمام « موتسارت » لكسب عيشه إلا سبيل العزف بالبيانو وقد تخلى له عنها معارضوه إذ لم يكن من بينهم من يدعي أن يجاريه فيها وليس عليهم في قيامه بها من ضرر

وبلغت من مناهضة « ساليري » للفنان « موتسارت » أنه لم يترك له فرصة لظهور ألحانه إطلاقا ، حتى ولو كانت إيطالية الأسلوب . ولقد لحن « موتسارت » لأحد أصدقائه من المغنين مقطوعة يغنيها منفردا في إحدى الأوبرات الايطالية فلم يسمح « ساليري » بذلك

اشتدت الفاقة بموتسارت حتى تعسر عليه في كثير من الأيام وجود القوت ، وإن كان قد أخرج للناس في ذلك الوقت خير مؤلفاته ، فقد

ابتدع وقتئذ الست الرباعيات الوترية الخالدة التي أهداها لأستاذه الموسيقار الأعظم « جوزيف هايدن » الذى كان يبادله المحبة والاحترام ، وكان هايدن هو الفنان الوحيد الذى خلا قلبه من الحقد على « موتسارت » فكان يعلن تقديره لفنه فى كل فرصة يسمع فيها ألحانه ، وفى كل مكان يتاح له لإبداء الرأى فيه . ومن مأثور قوله كلمته الصادقة للوالد « موتسارت » وقد زار فينا فى ربيع عام ١٧٨٥ « إننى أصارحك ، وأشهد الله على قولى ، إن ابنك أكبر ملحن عرفته أو سمعت به ، له ذوق ممتاز وموهبة معجزة فى التأليف »

وكان الشاب « موتسارت » يود أن يحتفظ بوالده فيقيم معه فى فينا . كذلك كانت رغبة زوجه « كونستانسه » سيما وقد أصبح الشيخ وحيدا فى زالتسبورج بعد أن تزوجت ابنته ماريانا وبعدت عنه فى جهة أخرى . ولكن الوالد « موتسارت » وإن كان قد أثلج صدره ما رأى من الوفاق والمحبة بين ولده وزوجه ، وفرح بحفيده الصغير الذى لم يتجاوز الستة الشهور ، إلا أنه فضل البقاء فى زالتسبورج على وحشتها إذ رأى الحياة مع ولده غير مضمونة

وكان الوالد على حق ، فقد انتقلت حال « موتسارت » فى (فينا) من سيء إلى أسوأ حتى كان يقصد ناشرى مؤلفاته يقترض منهم النذر من المال وقد ترك زوجه وولده فى الدار وليس عندهما ما يقتاتان به .

اوبرا « زواج الفيجارو »

كان المنزل الذى تقيم فيه أسرة « موتسارت » بفينا ملكا للبارون « ولتسار » الذى كان ذا ثقافة عالية ، وشخصية ممتازة ، شغوفا بالموسيقى إلى درجة كبيرة . وقد وجه هذا النبيل نظر الفنان « موتسارت » إلى رواية هزلية صادفت فى « باريس » نجاحا منقطع النظير ، تلك هى رواية « زواج الفيجارو » للكاتب الفرنسي الذائع الصيت « بومارشيه »

قرأ «موتسارت» هذه الرواية فأعجب بها ووجد فيها خير ما يمكن أن يقوم بتلحينه أوبرا هزلية

وقد كان لنفوذ البارون « ولتسار » ما جعل « أبات دى بونت » شاعر البلاط القيصرى يقوم بنظم هـذه الرواية شعرا للأوبرا ، وكان ضادق الخبرة فى هذا العمل واسع الدراية به

كان « موتسـارت » والشاعر « بونت » على وفاق تام ، توثقت بينهما روابط الصداقة ، واعتزما إنجاز هذه الأوبرا فى تكتم شديد حتى لا يشعر بهما « ساليرى » وشيعته من أعداء « موتسارت» العاملين على إحباط أعماله ، فيقضى على الوليد ولم يزل جنينا

فلما انتهيا من الأوبرا نظما ، وتلحينا ، كان لزاما على الشاعر (بونت) أن يعرض الأمر على القيصر ، فوضع الرواية بين يديه ، فأعجب بها أيما

إعجاب ، وسر ببديع نظمها سرورا كبيرا . إلا أنه لم يرقه أن تكون موسيقاها من تأليف « موتسارت » ، فلئن كان (موتسارت) قد نجح حقا فى أوبراه الأخيرة (الاختطاف من السراى) نجاحا باهرا ، لقد كانت تلك الأوبرا أغنيات شعبية ، أما هذه فإيطالية النظم فرنسية التأليف أفما كان الأجدر بتلحينها (ساليبرى) أو أحد أعوانه ؟ . ولكن القيصر رأى ألا يتعجل حتى يطلع على الموسيقى فاستدعى إليه موتسارت وأخذ يعرض معه ألحان الأوبرا واحدا واحدا . وإذ كان القيصر واسع المعرفة فى تفهم هذا الفن فقد أعجب بالموسيقى إعجابا كبيرا جعله يصدر أمره إلى النبيل (روزنبرج) مدير المسرح بسرعة دراسة هـــــذه الأوبرا وإخراجها . وإذ كان هذا النبيل نفسه من أعداء موتسارت فقد غص بهذا الأمر ، ولكن ما حيلته وقد أصدر القيصر أمره ؟ إذن فلا أقل من وضع العراقيل أمام (موتسارت) فى تجارب هذه الأوبرا

كان الفصل الثالث يشتمل على حفلة زفاف ، وكان عماد هذا الفصل حفلة راقصة كبرى ، فكان من غير المعقول أن يظهر هذا الفصل خلوا من هذه الحفلة . ولكن مدير المسرح رأى حذف هذه الحفلة الراقصة بحجة أن القيصر سبق أن أظهر رغبته السامية بصفة عامة بحذف جميع مناظر الرقص من الأوبرات بالنسبة لما تتكلفه من باهظ النفقات . أحس موتسارت ما يدبر حوله من مكيدة ورأى أن القوم لا غاية لهم إلا

إحباط أوبراه ، فثار لفنه وبلغ به الأمر أن تشاجر مع المخرج ، وهو من الشيعة المعارضة

وكان من حسن طالع موتسارت أن حضر القيصر آخر تجربة للأوبرا ، فلحظ بنفسه وجود ثغرة في الفصل الثالث سببها حذف منظر الحفلة الراقصة التي يجب أن يحتويها ، فلما استطلع الأمر عرف من موتسارت ما كان من أمر الحذف الذى سبب بتر هذا الفصل ، فأصدر القيصر أمره للنبيل (روزنبرج) بإخراج هذا المنظر غاية ما يكون من الأبهة والفخامة

وكتب الله لتلك الأوبرا الخالدة « زواج الفيجارو » أن تظهر على المسرح كاملة فخمة فى أول مايو سنة ١٧٨٦

ازدحم المسرح بالجمهور الذى استقبل ألحان هذه الأوبرا استقبالا رائعا فكان يعلو هتافه فى نهاية كل لحن طالبا الإعادة فاستعيدت أكثر ألحانها غير مرة حتى استغرقت الأوبرا فى تلك الليلة ضعف الوقت المقرر لها . لقد جمعت هذه الأوبرا حقا جميع محاسن فن الأوبرا الإيطالى والفرنسى متشحة بحسن ذوق الفنان موتسارت ، ولقد خلع على الرواية حلو الفكاهة الفرنسية ثوبا من المرح واحتوت موسيقاها تعبيرا عميقا وذوقا سليما فكانت ذات أثر كبير فى تحريك المشاعر وسحر النفوس

وهكذا أتيح لفينا الحصول مرة أخرى على أوبرا خالدة يحق لها أن

تفخر بها . ولقد غزت ألحانها كل قلب ونفذت إلي كل فرد

الآن وقد تحقق أعداء « موتسارت » الخطر الداهم الذى يهددهم به هذه العبقرية الجبارة فقد ضاعفوا مجهودهم فى مناوأة هذه الأوبرا حتى حرموا أهل « فينا » من إعادة سماعهم إياها إلا أندر ما يكون . وإذ كان مدير المسرح نفسه من هـذه العصابة فقد كان تنفيذ ذلك مضمونا ميسورا . .

ضاقت الدنيا فى وجه « موتسارت » وأصبح لا يجد لفنه فى «فينا» مجالا ، ولا لا يتاجه نجاحا مهما جود فيه ، وبلغ به الضيق أن فكر فى الرحيل إلى إنجلترا أو فرنسا وقد كتب إلى والده وقتئذ يقول :

« عزيزى الوالد . إذا كانت ألمانيـا ، بلادى ، التى أفخر بالانتساب إليها ، لا تريد الاحتفاظ بى، فإنى لا أجد مفرا من المهاجرة منها ، والرحلة إلي فرنسا أو إنجلترا فأمنحها فنانا ألمانيا ماهرا . وإنه لمن العار أن يكون هذا هو الحال دائما في الشعب الألمانى ، فقـد كان التفوق دائما في جميع الفنون لعباقرة من الألمان ، ولكن أين أصابوا حظهم وأين بنوا مجدهم ؟ لم يصيبوه ولم يبنوه داخل البلاد الألمانية ولا ريب »

كان لموتسارت صديق يقيم فى مدينة « براج » يدعى «دوشيك» وهو موسيقى ماهر ، اختاره « بونديني » مـدير مسرح الأوبرا بهذه المدينة رسولا الى « فينا » لمشاهدة أوبرا « زواج الفيجارو » وإخطاره

برأيه فيها فلما أعجب الرسول بتلك الأوبرا إعجابا هز مشاعره كتب الله لها أن تبعث من قبرها فى « فينا » لتحيا فى مدينة « براج » وتبقى خالدة على الأيام .

وفى يناير سنة ١٧٨٧ رحل « موتسارت » وزوجه « كونستانسه » إلى « براج » تحقيقا لرغبة أهلها فى مشاهدتهم له يقود الفرقة فى أوبراه التى نجحت فى تلك المدينة نجاحا جعل الألسن تردد ألحانها في كل مكان والثناء عليها فى جميع المجالس والمنتديات ، بل لقد انتقلت مقطوعاتها إلى المراقص العامة وأخـذ الشعب يرقص فيها على ألحان «زواج الفيجارو» فزادها شهرة وبعدا فى الصيت

ما كاد الجمهور يلمح «موتسارت» داخلا إلى مسرح الأوبرا ليقود فرقتها حتى نهض واقفا على بكرة أبيه يحيي الفنان بهتافات عالية ونداءات كلها تبجيل واحترام

فلما انتهت الأوبرا لم يدع الجمهور الفنان « موتسارت » يفلت من أيديهم بل اضطروه للجلوس إلى آلة البيانو يوقع عليها منفردا ألحانا مرتجلة مبتكرة كان يخلقها فى ابتداع مدهش. ولقد بلغ من حماس الشعب أن استعادوا ألحانه المرتجلة مرات بعد مرات ، وكان الفنان فى عزفه يترجم عن خوالج فكره وخبيئة نفسه فكانت الألحان تعبر تارة عن حزن عميق سرعان ما ينقلب إلى مرح ومسرة . وإذ كان الفنان يرتجل حلو النغمات والجمهور

يستمع اليه فى صمت عميق ، إذا بصوت يرتفع من الصالة « نريد زواج الفيجارو » وإذا بالفنان ينتقـل فى ارتجاله دفعة واحـدة ، وفى انسجام عجيب ، يصور ألحان الفيجارو ، وينتقـل فيها من فكرة إلى فكرة حتى جاء عليها جميعا ، وانتهى بالعودة إلى الفكرة الأولى منها ، والجمهور سابح فى نشوة من الطرب ، وغيبوبة من سحر الألحان

كانت هذه الليلة بمثابة التتويج الفنى لموتسارت وقنبلة انفجرت فى جميع مقاطعة بوهيميا ، فقد راح الشعب يشيد بذكر هذا الفنان الموهوب المعجز ، وقوة ألحانه ، وبديع موسيقاه . وبلغ من حماس أهل « براج » لأوبرا « زواج الفيجارو » أن ظلت تمثل بتلك المدينة دون انقطاع طوال فصل الشتاء ، وقـد ساعد على نجاحها المهارة الفائقة لفرقة الأوبرا التي كان يديرها « بونديني » غناء وعزفا وإخراجا حتى نالت من « موتسارت » رضاءه التام

وأعجب « موتسارت » بأهل « براج » إعجابا كبيرا جعله يفضلهم على جميع جماهير البلدان التى تنقل فيها ، حتى قال :

« مادام أهل « براج » يفهمونني جيـدا فسألحن من أجلهم أوبرا خاصة بهم » . قال « موتسـارت » ذلك لبونديني وهو يغادر « براج » عائدا الى « فينا » ولم يكن لموتسارت أن يبهج « بونديني » بأكثر من هذا الخبر الذى طار له فرحا إذ لاشك فى أن أوبرا جديدة ، يقوم بتأليفها

مؤلف « زواج الفيجارو » تكون له ثروة كبيرة وكنزا ثمينا

وإذن فقد تعاقد « بونديني » مع « موتسارت » على هذا العمل الجديد على أن تنتهي تلك الأوبرا في خريف ذلك العام

عاد « موتسارت » إلى فينا، واستأنف عمله الشاق فيها بإعطائه دروسا في البيانو لكسب عيشه وتوفير قوته اليومي وكانت مؤلفاته تدر إيرادا لا يذكر، ذلك بأن عازفيها كانوا يتداولون نسخها الواحد من الآخر دون أن يدفعوا في سبيلها درهما واحدا حتى لقد أبى أن يدون مقطوعات «الكونسرت» الخاصة بالبيانو ليتمكن من الاحتفاظ بها لنفسه فلا يتعدى عليه فيها سواه

أما الأوبرات فقد كان الأجر المقدر لها عادة مبلغا لا يزيد على الأربعين جنيها للواحدة وهو ما كان يتقاضاه موتسارت عن أوبراته الخالدة. من أجل هذا كان يعيش في شظف من العيش وقلة من المال

وأبت الأيام إلا أن تزيد في آلامه وتضاعف بؤسه فورد اليه من «زالتسبورج» ما ينبئ عن شدة مرض والده ثم وفاته في ٢٨ مايو سنة ١٧٨٦

زيارة مفاجئة

جلس « موتسارت » وحيدا حزينا موزع الفكر مشتت البـال وإذا بالخادم تناديه :

— سيدى ، سيدى ، لقد كررت النداء لك ، فما بالك لا تجيب ؟

— قد أكون مشغول الفكر ، مشتت البال ، قولى ما وراءك ؟

فقدمت اليه الخادم رقعة صغيرة مكتوب عليها بحروف واضحة :

لودفيج فان بيتهوفن
عازف الأرغن بمدينة بون

— إنه من أراضى نهر الرين الجميلة . . دعيه يدخل

وما كادت الخادم تخرج حتي دخل الغرفة صبي فى مقتبل العمر ، فى وجهه أثر الجدرى ، فأخذ يرمق « موتسارت » ويتأمله ثم قال له فى حياء :

— أى أستاذى ، إننى قادم من مدينة « بون » وقد وصلت أخيرا إلى « فينا »

فقاطعه « موتسارت » بقوله :

— هل حقا أنت عازف بالأرغن ؟ إنك لا تزال صبيا

— لقد بلغت السادسة عشرة ، ولكنى فى حاجة لازدياد تعليمى حتى أتكسب ما يقوم بأود أبوي وأخوتى .

لم تكن هذه النغمة جديدة على « موتسارت » فقال للصبي: أريد أن أسمعك تعزف . ثم قصد بنفسه إلى البيانو حيث جلس اليه ، وبدأ فى عزف فكرة موسيقية ، ثم طلب الى بيتهوفن أن يسير على منهاج هذا اللحن ارتجالا

جلس الصبي « بيتهوفن » إلى البيانو وقد بدأ العزف فى خجل ظاهر، ثم سرعان ما اندمج فيه حتى تلاشى فى الموسيقى وأصبح لا يحس شيئا حوله إطلاقا ولا يشعر إلا بوحى الموسيقى وإلهامها

كان فى هذا العزف مفاجأة لموتسارت ، إذ لم يكن يتوقع من هذا الصبي كل هذا الفن الذى لا يدل عليه مظهر الصبا ، وأخيرا نهض « بيتهوفن » بعد أن طبع « موتسارت » على جبينه قبلة التقدير ، فخاطبه « بيتهوفن » قائلا :

— أتسمح لي أن أتتلمذ عليك ؟فتعطيني دروسا أتمم بها فنى؟

— نعم ، وسأبدأ معك من الغد

انصرف « بيتهوفن » بعد أن ودع أستاذه « موتسارت » وقد نال بغيته وأصاب طلبته ، وتحققت أعز أمانيه

ولكن للأسف لم يتلق « بيتهوفن » على « موتسارت » كثيرا من الدروس فقد كان مشغولا بإعداد أوبراه الجديدة التي تعاقد عليها مع « براج » وكان منصرفا إليها لدرجة أنسته تلميذه كذلك مرضت والدة « بيتهوفن » فاضطر للعودة إلى « بون »



قمة المجد

لم يخفف من فجيعة « موتسارت » فى فقد والده إلا شدة انشغاله بتلحين أوبراه الجديدة التى يعدها لمدينة « براج » فقد أقبل على تفهمها ، ودراسة مواقفها ، وتكييف ألحانها ، وصياغتها، مما استحوذ على فكره ، واستولى على جميع حواسه

كانت هذه أوبرا « دون جوان » وهى أيضا من نظم « أبات دى بونت » شاعر القيصر ، الذى نظم له أوبرا « زواج الفيجارو » من قبل

وتلك الأوبرا الجديدة وقعت حوادثها فى أسبانيا فهى لذلك قد جمعت بين مرح الجنوب ، وفكاهته الحلوة ، كما أنها مفعمة بالحب المتطرف المتنقل ، إذ كان بطلها « دون جوان » زير نساء ، انغمس فى ملذاته ، وإشباع شهواته حتى قادته إلى الموت

إذن ، فقد كانت هذه الأوبرا مليئة بالطرائف والمفاجآت ، مفعمة بشتى العواطف ، ومختلف النزعات . وأية قوة تستطيع أداء هذه المهمة تامة كاملة ، وتعبر عن تلك النواحى المختلفة المتباينة غير الموسيقى ؟ وأى فنان يستطيع أن يؤدى هذه الرواية على الوجه الأكمل غير « موتسارت » ؟

وهكذا عثر « موتسارت » فى هذه الأوبرا على ضالته التى ينشدها .

وأخذ يكسو أشعارها من فيض إلهامه ألحانا ساحرة ، ونغما عجيبا ، فلما أنجز تلحينها ، إلا قليلا اعتزم الرحيل الى « براج » لاقتراب الموعد المحدد له

كان الفصل خريفا ، والجو صحوا ، فى يوم من أيام سبتمبر ، حيث غادر « موتسارت » ، وزوجه « كونستانسه » « فينا » مدينة القيصرية ، وقد خلفا وراءهما عصابة المعارضين من أعدائه وجماعة البلداء من تلاميذه الذين كتب عليه أن يشقى بتعليمهم . وكانت تقلهما عربة كبيرة فخمة قدمتها لهما أرملة القائد « فولكشتيت » إحدى المعجبات بفن موتسارت وهى عربة مريحة ممدة لتلك الرحلات الطويلة ، ذات غطاء محكم ، ومقاعد وثيرة من الجلد اللين

أخذت جياد المركب تنهب الأرض فى طريقها الى « براج » وسط المروج الخضراء ، والغابات الواسعة المترامية الأطراف ، وكانت السماء صافية غاية فى الصفاء ، والجو معتدلا غاية فى الاعتدال ، وأخذ « موتسارت » يمتع طرفه بهذا المنظر الساحر ويسحر لبه جمال الطبيعة الفتان . وهو فى دخيلة نفسه يشعر بتحلله من ضيق (فينـا) ودسائس فنانيها ويستقبل مدينة « براج » التى تستنفد الصبر للقائه ، والتى يحبه أهلها ويقدسون له . لهذا كان « موتسارت » فى طريقه شديد المرح ، كثير الدعابة مما أثار ضحك « كونستانسه »

بلغ المركب مدينة « براج » فنزل الزوجان فى فندق « الأسود الثلاثة » وكان قد أعده لهما « بوندينى » ولكن إقامتهما بهذا الفندق لم تطل فقد استضافهما الصديق «دوشيك» في بيت له خلوى بضواحى « براج » الجميلة التى كان من سحر مناظرها ، وجمال طبيعتها ، ما علمأن الفنان على الإقامة فيها حيث أتم تلحين أوبراه ، واستكمل كل معداتها الفنية

كان النبلاء ، والأشراف ، وعلية القوم من أهل (براج) ، والكثير من أصدقاء الفنان ، والمعجبون به يؤمون هذا البيت ويترددون عليه لزيارة « موتسارت » ، فكانوا يستمتعون بسماع القليل مما يجود به عليهم من ألحان أوبراه الجديدة وكان هؤلاء رسل دعاية قوية فى (براج) يحدثون أهلها عن بديع الألحان وروائع الموسيقى التى تحويها الأوبرا المنتظرة حتى صار الشعب يتلهف على مشاهدتها ، ويتوق لسماع ألحانها

بدأت التجارب ، وكان « موتسارت » قد نهج في تلحين هذه الرواية نهجا جديدا غير الذى كان متبعا من قبل ذلك بأنه في صياغتها ، لم يهتم إلا بالناحية الموسيقية الفنية لذاتها ، لتكون الأنغام تعبيرا عن الشعر ومعانيه ، مسايرة لمواقف الرواية ، مؤدية لأغراضها ، ولم تقيده فى ذلك حناجر المغنين والمغنيات أو كفاية العازفين فيتقيد بها فى تآليفه ، ومن أجل ذلك رأى الفنان أن يتهاون في تجاريبه مع هؤلاء المغنين والعازفين

فيقوم لهم بإجراء تعديل بسيط إذا لزم الحال ، وتطلبته مقدرة الأداء .
من ذلك مثلا ، أنه في منظر الكنيسة حيث ينفرد النفير بصوته ، كان العازف بتلك الآلة شيخا لم يدر كيف يعزف هذا الموضع . ولقد أرشده « موتسارت » غير مرة إلى طريقة الأداء ولكنه لم يقدر عليه فلما ضاق الشيخ بهذا الإرشاد قال مغضبا :

— ليس في وسع الجن ، يا سيدى ، أن تؤدى هذا الوضع بتدوينه الحالى وما في قدرتى أن أتغلب عليه فربت « موتسارت » على كتف الشيخ وقال في ابتسامة حلوة :

— لا تغضب أيها الشيخ ، فانى أجل نفسى عن تعليمك وإن تستطيع أن تحفظ منى شيئا ، هات النوتة ، وسأغير لك الموضع بحيث تتيسر لك سهولة الأداء

وتناول « موتسارت » النوتة من الشيخ وأخذ في تعديل بعض علامات جعلت الأداء للعازف ميسورا سهلا

وفي اليوم السابق لإخراج الأوبرا ، أقبل « بوندينى » على موتسارت فزعا متجهم الوجه عبوسه ، وهو الذى ما تعود إلا أن يلقاه فرحا مستبشرا فانزعج الفنان لهذا التغير المفاجىء ، وخشى عاقبته فخاطبه :

— ما بالك ؟ إنه ليخيل للناظر إليك ، أن قد أصابك أمر جلل ! طمئني ، ما وراءك ؟

— نعم أصابني ما يدعو إلى القلق والانزعاج

— أرجو ألا يكون مختصا بالأوبرا

— بل هو للأسف مختص بها، وإنك تعرف السبب، ولا ريب

— لا أدرى ما تقصد، وأجهل ما يفزع سيدى المدير فلقد جاءت التجارب غاية فى النجاح، وكل شىء على أتم ما يرام

— هذا صحيح . . .

— وبيعت التذاكر حتى لقد نفدت جميعها منذ ثمانية أيام

— وهذا صحيح أيضا . .

تحول هدوء موتسارت إلى فزع، وظهرت على وجهه أمارات الاهتمام وقال فى لهفة

— هل مرضت المغنية الأولى السوبرانو أو المغنى الأول التينور ؟

— لا هذا ولا ذاك

هدأ « موتسارت » وأخذ يداعب صديقه :

— إذن هل حدث شىء لزوجك، أو وقع انحراف فى صحتها ؟

فأجاب « بونديني » فى تهكم وتعجب :

— صحتها، وصحتى، وصحة الجميع بخير !

— إذن لا أدرى حقا ماذا يزعجك ولماذا تزعجنى معك على هذه الصورة المخيفة

ـ إن الأوبرا ينقصها « الأوفرتير » (المقدمة الموسيقية) ياسيدى الفنان!

قال بوندينى ذلك والشرر يتطاير من عينيه ، ويكادمن غيظه يفترس « موتسارت » ثم استمر فى حديثه يقول :

ـ وغدا تظهر الأوبرا . والآن فقط حضر إلىّ « كوخارتس » رئيس الفرقة الموسيقية المستديم ، وأخبرنى بالمصيبة التى أزعجتنى أن الأوبرا ليس لها حتى الآن « أوفرتير »

فلما سمع « موتسارت » ذلك انبسطت أسارير وجهه وقال وهو يضحك من المدير :

ـ إذا كان الأمر مقصورا على ذلك فهو هين فلدينا إلى الغد متسع من الوقت

كاد « بوندينى » يجن لهذا الاستهتار وقال فى سخرية :

ـــ نعم متسع من الوقت يوم كامل إلى الغد لتأليف أوفرتير كاملة لأوبرا كبيرة فخمة مثل « دون جوان »

وضع « موتسارت » كلتا يديه فوق كتفى المدير وهزه وهو يقول :

ـــ وهل تعتقد أنى سأسىء إلى عملى العظيم بوضع أوفرتير غير لائقة ؟ إطمئن يا صديقى فإنى لن أمنح العالم إطلاقا أوفرتير كهذه ، روعة وفخامة وسحرا

فتنفس « بوندينى » الصعداء وكأنما ألقى عن كاهله حملا ثقيلا وقال فى

فرح شديد:

- شكرا لله إذن فقد أنجزت الأوفرتير ، عليَّ بها ، سلمني إياها أيها الفنان المبدع ، سأحملها مني الآن

ضحك موتسارت منه وهو يقول :

- نعم أنجزتها ، وهي منتهية تماما ولكنني لم أكتب منها حرفا واحدا هي منتهية كاملة في رأسي

كاد « بونديني » يصعق لهول ما سمع ، فقال وهو يضرب يدا بيد :

- في رأسك ! أي خراب ، وأي دمار ينتظرنا وعلى فرض أنك تحفظها في رأسك ، فتي يتم لك تدوينها وتوزيع الموسيقى لجميع آلات الفرقة التي تزيد على المائة عازف ؟

- ارسل النساخ الي في صباح الغد ، في الساعة السابعة تماما . وسأعطيه العمل كاملا . وعليه الاجتهاد في نسخها عنده بمضاعفة أجره .

- مضاعفة الأجر ميسورة ، ولكنني لا أستطيع أن أتصور أن في استطاعتك أن تقوم حتى إلى صباح الغد بعمل «أوفرتير» مناسبة لتلك الأوبرا العظيمة « دون جوان » إلا إذا كنت يا « مونسارت » جنا ، أو ساحرا

- تصور ما يبدو لك ، يا سيدي المدير ، ولكنني أرجو أن تدعني الآن وحدي ، أريد أن أبدأ العمل .

— إنى شديد الحرص على ألا تضيع من وقتك ثانية واحدة . . سأرسل لك النساخ فى تمام الساعة السابعة من صباح الغد . . إلى اللقاء !

قال « بوندينى » ذلك وخرج من الغرفة مهرولا وقد أطلق ساقيه للريح .

جلس « مونسارت » وحده ، وهو يضحك ثم قام وأحضر ورقا لكتابة النوتة ، ومدادا وقلما . وما تأهب للعمل حتى دخل عليه صديقه « دوشيك » وخاطبه قائلا

— يوم رائع ، وطقس جميل ، لقد أعددنا أنفسنا يا « مونسارت » لنزهة خلوية فى الضواحى ، وإن مركبى لينتظرنا بالباب ، وإن زوجى ، وزوجك ، كلتاهما جالسة فيها ، أليس من الإجرام أن يظل المرء حبيس البيت فى مثل هذا الطقس البديع ؟

— سأكون معكم .

قال « مونسارت » ذلك وقد نسى « الأوفرتير » و « بوندينى » والنساخ . وقام فأبدل رداءه ، ولبس قبعته ، وتبسم مضيفه وهو يغنى ويصفر فى فرح ، ومرح !

خرج الجميع إلى ضواحى (براج) الرائعة المنظر ، واستمتعوا بجمال طبيعتها الساحر ، وسمروا بحديث طلى ، فمر الوقت مسرعا ، وانقضت الساعات دون أن يشعروا بها وأقبل المساء فعادت العربة حتى وقفت

أمام منزل « دوشيك » حيث وجدوا البيت جميعه مضاء كأنما أعد لحفل فخم ، بل لقد امتلأ بالزائرين .

استوضح « موتسارت » جلية الخبر فى عجب واندهاش

فقال « دوشيك »

— إننا سنحتفل الليلة بظهور الأوبرا العظيمة « دون جوان » التي سيظفر بها المسرح غدا . ولقد دعوت لهذا الغرض جمعا من الأصدقاء ، ونخبة من رجال الفن والصحافة لنشرب معا نخب الفنان العظيم ، ونتاجه المعجز .

لم يكن لدي « موتسارت » أحب من وجوده فى مثل هذه المجتمعات المرحة ولذلك أقبل على الدار فرحا فاستقبله الحشد فى تجلة ، واحترام ، وانشراح .

كان ضمن المدعوين طائفة كبيرة من المغنين ، والمغنيات الذين سيقومون غدا بغناء الأوبرا ، كذلك حضر الحفل « بونديني » مدير المسرح وزوجه . أكل الجميع وشرب ، وظل الجميع فى بهجة ومسرة ، وكان « موتسارت » حلو الفكاهة ، رقيق الدعابة ، فبعث من روحه المرحة ما غمر الجمع سرورا وانشراحا . وفى منتصف الليل هم صاحب المنزل « دوشيك » فطلب إلى ضيوفه أن يشربوا جميعا نخب النجاح العظيم المنتظر غدا لأوبرا « دون جوان » العظيمة .

وبينما القوم يشربون هذا النخب فى ضجيج من الفرح إذا ببوندينى يقوم فجأة مخاطبا الجمع فيقول :

— إنكم تستطيعون الآن أن تشربوا نخب الأوبرا فى سرور ومرح ، وأنا أيضا معكم ، ولكنى أعيذكم مما كنت فيه صباح اليوم ، فقد كدت أموت فزعا ورعبا ، والله وحده يعلم ما أهمنى وأكربنى

قال « بوندينى » ذلك فاستوضحه « دوشيك » السبب ، فقال :

— تصوروا أيها السادة ، أن فناننا الطيب ، لم يكن قد كتب حتى ظهر اليوم حرفا واحدا فى الأوفرتير

صعق الجميع ، وظهرت عليهم علائم الدهشة ، وقال « دوشيك » :

— ماذا ؟ الأوفرتير لم تكن قد أنجزت حتى ظهر اليوم ؟ هذا هذيان منك يا صديقى المدير ، وقصة خرافية أملاها عليك الخمر ، فإن صديقى « موتسارت » لازمنى منذ الظهر ، ولقد تريضنا ومعنا زوجاتنا ، وقضينا اليوم حتى المساء فى الضواحى الجميلة لبراج إلى أن حضرنا معا حيث التقينا بكم هنا . فلا بد إذن أن تكون الأوفرتير قد انجزت قبل ذلك !

بهت « بوندينى » ونظر إلى « موتسارت » نظرة استفسار وقال فى دهشة :

— الأوفرتير ، الأوفرتير يا أستاذ ، ماذا تم فى الأوفرتير ؟

— الأوفرتير ! قد نسيتها .

قال « مونسارت » ذلك وهو يهرش خلف أذنه . أما « بونديني » فقد اصفر وجهه ، وجلس جثة لا حراك فيها . فقال له « مونسـارت » وهو يواسيه ، وقد أخرج ساعته فنظر فيها :

ـــ الآن الساعة الثانية عشرة تماما ، إذن بقى لي سبع ساعات كاملة حتى يحضر لى النساخ الذى سترسله الىّ فى تمام الساعة السـابعة صباحا ، في هذا الوقت متسع لي وكفاية

ـــ نهض « مونسارت » من مجلسه ، أما « بونديني » فقـد ظل يهرف وينادي :

ـ ماذا ؟ الوقت كاف ؟ يا للسماء ! أوبرا فخمة ضخمة كدون جوان يقتلها مثل هذا الإهمال !! كيف يمكن انجاز أوفرتـير تتناسـب وفخامة تلك الأوبرا ! ومتى تكتب الألحان لكل هذه الآلات !! ومتى تقوم الفرقة بعمل تجربة على عزفها !! اللهم كن عونى !! إننى لا أدرى ماذا أفعل !

وأخذ « بونديني » يسير فى الغرفة سبهللا لا يدرى ما يفعل فقال « مونسارت » :

ـــلقد اتفقنا أن ترسل إلىّ النساخ فى تمام الساعة السابعة صباحا أما تجربة الفرقة على عزف الأوفرتير فإنى أعرف رجالى ، عازفى الفرقة ، أعرفهم جد المعرفة ، وأعرف كفاياتهم الفنيه ، وفى مقدورهم عزف

الأوفرتير لأول مرة من الورق دون تجربة . هدىء أعصابك يا سيدى « بوندينى » ، وكن عظيم الثقة في صديقك « موتسارت » وفى رجال فرقتك . عموا مساء ، سيداتي وسادتى .

واتجه « موتسارت » إلى زوجه مخاطبها بقوله :

— خذى معك لى كاسا من الخمر انتعش به فى جلستى ، وأغالب به النوم ، وظلى الليلة بجانبى .

أخذ « موتسارت » زوجه ، وترك الجمع وانصرفا إلى الغرفة المجاورة ، وهى الغرفة التى اتخذها لعمله ، وكان كل شىء معدا فيها من قرطاس ومداد وأقلام منذ تركها ظهرا .

— يا عزيزتى « كونستانسه » لا تبتئسى،ولا تفكرى فى الأمر فإن الأوفرتير جاهزة ومعدة .

فقالت « كونستانسه » مسرورة :

— ماذا ؟ الأوفرتير منتهية معدة ؟ أرنى إياها ؟

فأجابها « موتسارت » وهو يضحك ، ويشير إلى رأسه :

— هنا ! إنى أحملها في رأسى منذ ثمانية أيام ! وكان عدم كتابتها مجرد كسل عن القيام بهذه العملية المملة ، عملية التدوين والآن يا « كونستانسه » ، كونى أنت الليلة شهر زاد فحدثينى عن خرافات ألف ليلة وليلة واستنبطى ما يعاوننى علي السهر .

اتخذت « كونستانسه » مكانها إلي جانب زوجها وأخذت تقص عليه قصة المصباح المسحور الذى كان يمتلكه علاء الدين ثم انتقلت به إلى قصة السندباد البحرى ، وهكذا حتي مرت ثلاث ساعات كاملة ، و « موتسارت » مجد فى الكتابة ، مقبل على تدوين الألحان فى صمت تام لم ينقطع إلا فترات ينظر فيها إلى زوجه نظرات خاطفة ! أو يشرب جرعة من كأسه ، ثم يتابع العمل .

بدأ الفنان يتثاقل فى التدوين ، ويبطىء فى الكتابة ، وأخذت علائم التعب تبدو عليه فكان رأسه يسقط على القرطاس من النعاس فيغالبه برفعها سريعا . فأقبلت عليه « كونستانسه » تمسح جبينه في رفق وحنان ، وتقول له :

ــ يا عزيزى « فولفجانج » لقد أخذ منك التعب مأخذه وليست هناك فائدة من إجهادك لنفسك علي هذا النحو . قم نم قليلا ثم استيقظ ، وأتم عملك فى جد ونشاط .

ــ صدقت يا « كونستانسه » ، إن العزيمة يقظة ، ولكن الجسم نائم . سأستريح ساعة واحدة ، أقوم بعدها فأتابع العمل . عدينى أن تظلى مستيقظة وأن توقظينى بعد ساعة تماما

ما كاد الفنان يستلقى على أريكة فى جانب الغرفة حتي غرق فى النوم ، فلما انقضت الساعة المحددة ، وأقبلت « كونستانسه » لإيقاظه

وجدته فى سبات عميق ، أشفقت معه أن توقظه ، فما تنظرت حتى دقت الساعة الخامسة فلم تجد بدا من إيقاظه ، فأيقظته بقبلة طبعتها على فمه .

استيقيظ « موتسارت » وكان أول عمل له أن نظر إلى ساعته وقال :

— الساعة الآن الخامسة إنك يا كونستانسة لم تف بوعدك ولكن لا يزال هناك متسع من الوقت ، والآن إذهبي أنت إلى مضجعك ودعيني وحدى

أطاعته كونستانسة وانصرفت إلى مضجعها ، واستمر هو فى الكتابة وقد تضاعف نشاطه حتى كان القلم كأنما يطير على صفحة قرطاسه

وفى تمام الساعة السابعة دق الطارق الباب ، ودخل النساخ الغرفة فوجد أوفرتير «دون جوان »مدونة معدة ملقاة أمام «موتسارت » .

وهكذا تم هذا العمل الخالد

***

جاء المساء فتدفقت الجماهير إلى الأوبرا واحتشدت الجموع أمامها حتى إذا تفتحت الأبواب تدافع الناس فى الدخول حتى امتلأت المقاعد بعد دقائق معدودة ، وأخذ القوم ، كأنهم فى خلية النحل ، يتحادثون عن « موتسارت » ذلك الفنان العبقرى الموهوب ، محبوب أهل براج ، وعن جلال الموسيقي التي ينتظرونها الليلة · وبعد لحظة سرت في القاعة قصة « الأوفرتير » فأخذ الجمهور يتناقل حديثها لغرابتها وشدة وقعها ، بل كان ذلك سببا في شدة تطلع الجمهور وتشوقه لسماع هذه « الأوفرتير»

التى لم يكن حظها من « موتسارت » إلا بضع ساعات فى ليل متأخر

وفى الحجرة التى كان أعضاء الفرقة الموسيقية ينتظرون فيها ، جلس الجميع وقد ظهرت على وجوههم سيماء الحيرة والارتباك . الأوفرتير لم تحضر بعد ، رغم أنها وزعت على عدة نساخين ، ولكنها كثيرة العلامات الموسيقية من ثنائية الأسنان وثلاثيتها «دوبل كروش وتريبل كروش» مما استغرق جميع وقت النساخين

أخذ الجمهور فى القاعة يبدى قلقه ، وجلس « بوندينى » جثة لا حراك فيها ، وإذا بصوت يرتفع قائلا . « إنها حضرت إنها حضرت»

كانت أوراق « الأوفرتير »قد جىء بها حقيقة ، ولما يجف مدادها بل ولا يزال عالقا بها ذرات الرمال التى جففت بها ، فانتفض« بوندينى» واقفا ، فوقع نظره على « موتسارت » وقد أقبل يطفح وجهه بشرا وسرورا

أقبل « موتسارت » على رجال الفرقه الموسيقية وقال مخاطبا إياهم:

ـــ أيها الأصدقاء الأعزاء ،إننى لا أستطيع معاونتكم، ويتحتم عليكم عزف « الأوفرتير » من النوتة مباشرة ، من أول مرة ، وما كان لى أن أجسر على هذه المخاطرة لو لم أكن واثقا من مهارتكم الفائقة وكفايتكم الفنية البارعة ، والآن لنعتمد على الله ونبدأ العمل

أسرع كل واحد من رجال الفرقة ، إلى تسلم أوراقه وقد امتلأت

قلوبهم حماسا لما سمعوه من الاطراء وحسن التقدير الذى وجهه اليهم فنانهم الأعظم

ما كاد « موتسارت » يحل مكانه من موضع القيادة فى الفرقه حتى قابله الجمهور بعاصفة من الهتاف والتصفيق دوت فى المكان تصم الآذان

انسابت نغمات « الأوفرتير » في شجو ساحر ، وأنغام حلوة وانسجام رائع ، حتى إذا شارفت الانتهاء وارتفعت الستارة عن الفصل الأول انفجر الجمهور بالتصفيق وهتاف الاستحسان والتقدير ، ولم يختص الجمهور الفنان وحده فى هتافه بهذا التقدير بل جعل نصيبا منه لعازفى الفرقة الذين استطاعوا الأداء من غير تجربة

سارت الأوبرا فى ألحان كأنها وحى سماوى ، ونغمات عذبة ملائكية كل شيء فيها جديد مبتكر لم يسمع الناس من ألحانها ما يذكرهم بشيء قديم . بل لقد تنقل الجمهور من لحن إلى لحن ، واشتد التأثر بها من فصل الى فصل حتي بلغت العاصفة أشدها في نهاية الرواية . كرر الجمهور تحيته للفنانين في نهايه الأوبرا غير مرة ، أما « موتسارت » فقد اضطروه بتصفيقهم ، وهتافاتهم الحارة إلى الظهور على المسرح مرارا لا عداد لها . بل لقد تأثر العازفون أنفسهم بحلاوة الألحان حتى كانوا يتمنون لو أنهم بدأوها من الأول

وأقبل « بوندينى » على « موتسارت » يحتضنه ، ويقبله وهو يقول :

ـ عزيزى الأوحد « موتسارت » ، لن أنسى طوال حياتى هذه الليلة ، كما أننى لن أنسى ليلة أمس واليوم الذى سبقها

لقد بلغ « موتسارت » فى تلحينه « دون جوان » القمة من مجده فكانت هى تاج جميع الأوبرات التى أبدعها

وكانت هذه الأيام التي قضاها فى « براج » أحسن أيام حياته إطلاقا

بين قيصر وملك

ذاع صيت أوبرا « دون جوان » فى جميع البلاد الألمانية، وصارت تتنقل بين مسارحها الكبرى ، وهي تلقي فى كل مكان نجاحا باهرا وإقبالا من الجماهير منقطع النظير ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تشق طريقها الى « فينا » إلا بعد عام أو بعض عام إذ كان أول ظهورها بمسارحها فى ٧ مايو سنة ١٧٨٨ حيث استقبلها الجمهور فيها استقبالا فاترا ، وحتى قال القيصر « جوزيف الثانى » عند سماعه لها :—

« لئن كانت هذه الأوبرا سماوية ، لقد لا تصلح غذاء لأهل فينا » .

إلا أن أهل هذه المدينة ، أخذوا يتذوقون هذه الأوبرا الخالدة ، رويدا رويدا ، ويتفهمون موسيقاها شيئا ، فشيئا ،

فكانت كلما أعيد تمثيلها ، ازداد إعجابهم بها ، وإقبالهم عليها ،

لم تنقطع دسائس المعارضين وشيعتهم من أهل الفن بل ظلوا يحيكون الشباك حول «موتسارت» ، ويقيمون العقبات فى طريقه ، ولكنهم برغم ما بذلوا من النشاط الواسع فى هذه الناحية ، لم يستطيعوا أن يقفوا فى سبيل عطف القيصر عليه ، فقد عينه ببلاطه فى وظيفة «موسيقى الصالون» بمرتب ثابت قدره ثمانمائة جولدن سنويا (ما يقرب من السبعين جنيها)

ولئن وجد « موتسارت » في هـذا المبلغ الضئيل بعض العون لقد كان عمله في هذه الوظيفة محدودا ، مقتصرا على العزف في حفلات الرقص التي يقيمها البلاط ، مما كان يضيق له صدر « موتسارت » حتى قال مرة في صدد ما يتقاضاه من هـذه الوظيفه « . . وهذا كثير بالنسبة لما أنتجه قليل بالنسبة لما أستطيع إنتاجه »

وخلت وظيفة الرئيس الأول لفرقة البلاط بموت الموسيقار «جلوك» وكان المرتب المربوط عليها ألفي جولدن في السنة (حوالى المائة والسبعين جنيها) . فحاول « موتسارت » أن يشغل هذا المنصب فلم يوفق

وكان الأمير (كارل ليشنوبسكي) من أكبر المعجبين بموتسارت ، حتى لقد تتلمذ عليه مدة طويلة . سافر هذا الأمير عام ١٧٨٩ إلى برلين فاستصحب معه أستاذه الموسيقار ، الذى فرح لهذه الرحله لعله يجد فيها مخرجا من بؤسه ، ويوفق إلى وظيفة ثابتة يعتمد عليها في حياته

وقد صادف يوم وصولهما برلين أن كانت أوبراه (الاختطاف من السراى) تمثل بها في دار الأوبرا . فقصد « موتسارت » إلى المسرح توا بملابس السفر ليقف على كفاية القائمين بأداء هذه الأوبرا غناء وعزفا

دخل « موتسارت » المسرح لم يعلم به أحد وتسلل بين الجماهير ، لكنه لم يستطع إخفاء إعجابه ببعض الفنانين ، ولم يكتم عدم رضائه عن البعض الآخر . وكان يتقدم في مقاعد القاعة حتى بلغ مكان الفرقه ، فأخذ

يراقبها . وحدث فى أثناء مصاحبة الموسيقى لقطعة غناء منفردة فى أحد مواقف الأوبرا أن عزفت آلات الكمان إحدى النغمات خطأ فأدرك «موتسارت» أن سبب ذلك خطأ كتابى في النوتة الموضوعة أمام العازفين نخرج عن صمته وصاح فى رجال الفرقة : « يا للهول . . . » أرجو أن تعزفوا فى هذا الموضع « رى » بدلا من « رى دييز »

فالتفت رجال الفرقة إليه ، وعرف بعضهم فى هذا الشخص النحيل الجسم ، الصغير الحجم ، المرتدى رداء رماديا بسيطا ، أنه هو الموسيقار « موتسارت » . وفى بضع لحظات كان نبأ وجوده قد سرى كالبرق فى وسط القاعة وتناقل الجمهور خبره فتصايح « موتسارت هنا » وانتقل الخبر الى المسرح ، فكان مفاجأة شديدة للمغنين والمغنيات ، وبلغ من شدة الرقع أن اعتذرت إحدى المغنيات من إتمام دورها فاضطر «موتسارت» للصعود إلي المسرح وتشجيعها حتى لقد وعدها بأن سيقوم بنفسه بدراسة دورها معها لتجويده .

وظل « موتسارت » مدة إقامته ببرلين ، يتردد يوميا على الملك فريدريك الأكبر ليعزف له . وإذ كان الملك معروفا بشدة شغفه بالموسيقى ، بل وولعه بها ، وعظيم تقديره لأهلها فقد عرض على « موتسارت » وظيفة رئيس فرقة البلاط ، وأن يمنحه مرتبا سنويا ثابتا قدره ثلاثة آلاف تالر (حوالى أربعمائة وخمسين جنيها) إلا أن موتسارت

قد أجابه فى سذاجة الفنان، وصراحته :

« هل أستطيع أن أترك قيصرى طيب القلب ؟ »

وتأثر الملك لهذا الجواب ، وأعجبه من « موتسارت » إخلاصه لقيصره فوعده بأن يحتفظ له بهذا العرض عاما كاملا يستطيع فيه أن يشاور نفسه ، ويرجع فيه إلى قيصره

وخرج موتسارت من حضرة فريدريك الأكبر وقد نسى أنه ما جاء برلين إلا لغرض السعى عن وظيفة ثابتة ولكن وطنيته الكامنة وحبه الغريزى لمدينة فينا، رغم ما يلقاه فيها من بؤس، هو الذى يدفعه دائما للعودة إليهـا

إذن فقد عاد «موتسارت» إلى فينا ولكنه قد اعتزم فى نفسه أن يعرض الأمر على قيصره ، فإما أن يقبل زيادة مرتبه ، أو يعفيه من خدمته فيرحل إلى برلين

وتناقل القوم فى « فينا » خبر اعتزام « موتسارت » هجرة « فينا » والرحلة منها إلى « برلين » فكان ذلك موضع حديث أندية تلك المدينـة ومجتمعاتها

مثل « موتسارت » بين يدى القيصر فقص عليه خبر مقابلته للملك فريدرك الأكبر وما عرض عليه من شأن الوظيفة . فقال القيصر :

— إذن صدق القوم فيما يشيعونه من أنك تريد هجرى . . . لقـد

أعلن الملك فريدريك الأكبر على والدنى حربا ضروسا أتت على الأخضر واليابس

قال القيصر ذلك . وقد نظر الى موتسارت نظرة تنم عن العتاب المشوب بالألم ، ونظر موتسارت الى قيصره فهاله ما رآه فيه من ضعف الصحة ومن مرض ينذر بقرب نهايته . عندئذ نسى الفنان المال ، والشهرة بل ونسى البؤس والكفاح والأعداء والمعارضين وقال :

ـ يا صاحب الجلالة ، لم يصدق الناس فيما قالوا ، انى لن أترككم وسأظل فى خدمة جلالتكم

ـ هذا ما كنت أؤكده فى فنانى موتسارت

وانصرف « موتسارت » إلى منزله حيث تلقته زوجه « كونستانسه » تستبينه الخبر

ـ هل أبلغته أمر سفرنا ؟

ـ كلا ، بل سنظل بفينا :

ـ وهل طالبته على الأقل بزيادة مرتبك ؟

ـ كلا لقد نسيت .

بقى « موتسارت » فى (فينا) ، ودامت له حياة البؤس . وظل هذا الفنان العبقرى يغالب تصاريف الحياة ، ويصارع وسائل العيش ، بينما كان غيره من الفنانين الذين كان شوطهم وراء خطوه ينعمون بالرغد والليان

ولقد أصبح « بونديني » مدير مسرح (براج) بفضل ما يدرّه عليه أوبرا « دون جوان » من الأرباح الطائلة مثريا واسم النعمة، بينما كان حظ « موتسارت » منها إنما هو مبلغ الأربعين جنيها المخصصة عادة أجرا للأوبرا.

وظل « موتسارت » فى ضيق من العيش، لا يسعفه فيه رائع فنه ولا عظيم نتاجه، حتى كان يقول فى كثير من المناسبات : « إن الموسيقى فن لا خبز فيه »

ونظرا لضآلة مرتب « موتسارت » واضطرار زوجه كونستانيسه للإقامة بالمصحات للولادة أو لتمريض أبنائها الكثيرين الذين كانوا رغم عنايتها بهم فريسة للأمراض، ولم يعش منهم إلا ولدها البكر كارل، اضطر « موتسارت » إلى استدانة ما يسد به حاجته. وقد لاقى كثيرا من الشدائد فى مطالبة الدائنين له بما حمله، لكى يخفف وطأتهم، أن يقوم مرغما بتلحين أوبرا جديدة لأحد مسارح «فينا» الإيطالية وكانت هذه الأوبرا واسمها «هكذا يصنع الجميع Cosi fan tutti » تافهة الموضوع، سقيمة المعنى ظاهر فيها التكلف إلى مدى بعيد فلم يجد معارضو « موتسارت » وأعداؤه عناء فى إسقاطها، فلم يكتب لها نجاح يذكر.

***

مات القيصر « جوزيف الثانى » فى ٢٠ يناير سنة ١٧٩٠، وتولى

بعده القيصر « ليوبولد » فعزل الموسيقار ساليري وبعض رجال فرقته الموسيقية وحاول « موتسارت » أن ينال وظيفة مناسبة بعد هذه التصفية فأخفق ، كما ضاعت منه وظيفة برلين.

وزاد بؤس «موتسارت» حتى بلغ أشده ،فرهن كل ما يمتلك،وأحاط به الإدقاع.

* * *

في صباح يوم من أيام صيف عام ١٧٩١ حضر الى منزل «موتسارت » رجل بدين الجسم ، مفتول العضل ، قوى البنية ، فلم تبال به « كونستانسه » واستقبلته فى فتور غير قليل ، ذلك بأن هذا الشخص كان الوحيد بين أصدقاء زوجها الذى لا ترتاح إليه ، فقد كان رجلا مستهترا ، يعيش عيشة البذخ وكان كثير الغواية لزوجها ، يحمله في كثير من الليالى على السهر الطويل المبتذل فلا يعود إلى بيته إلا فى حالة سيئة غير مرضية

هذا الزائر هو « عمانويل شيكانيدر » كان مديرا لكثير من مسارح المدن النمساوية ، حالفه النجاح في أعماله فأصبح ذا ثروة واسعة. وتعرف إلى أسرة « موتسارت » يوم أن كان مديرا لمسرح مدينة (زالتسبورج) . وهو الآن مدير أحد مسارح مدينة (فينا)

أرشدت « كونستانسه » الضيف إلى غرفة زوجها فاستقبله متهللا قائلا:

- صديقى شيكانيدر !! أهلا ، وسهلا ، إننى لم أرك منذ زمن طويل ، كيف حالك ؟

- حالى سيئة ، بل أسوأ ما تتصور ، لم يعد هناك أقل إقبال على مسرحي ، مهما بذلت فيه من جهد ، ومهما عرضت فيه من مسرحيات هزلية ، أو غنائية ، فإنه يظل خلوا ، إن القوم ليفضلون على التمثيل مشاهدة سباق الخيل أو دور ملاعب (الأراجوز) حيث يتفكهون بالمهرجين والألعاب البهلوانية ، إننى قد أفلست يا « موتسارت »

تجمد الدم فى عروق « موتسارت » لشدة وقع الخبر عليه ، إذ أنه يعرف فى صديقه سعة الثراء ، وأنه كان يعيش عيشة الأمراء ، حتى ليعد فى طليعة الطبقه الراقية من أهل (فينا) فمن غير المعقول أن يراه مفلسا على هذه الصورة . وإذ لحظ شيكانيدر حيرة « موتسارت » وارتيابه أكد له الأمر وخاطبه والعبرات تخنقه :

- إننى يا صديقى لا أقول إلا حقا . وليس هناك فى العالم كله منقذ إلا شخص واحد هو أنت يا موتسارت

اشتد العجب بموتسارت وأجابه في دهشة :

- أنا ؟ . أنت تعلم أننى لا أملك درهما واحدا

- ليست معونتك فى إقراضى المال إنما العون كل العون في أن تلحن أوبرا خاصة لمسرحى ، أوبرا ألمانية ، فإن فعلت ذلك فقد أنقذتني

ــ لقد آليت على نفسي ألا ألحن لفينا أية أوبرا

فوضع «شيكانيدر» يده على كتف «موتسارت» وقال له في توسل :

ــ « موتسارت » ! ، أيها الصديق الأغر ، إذا كنت أنت ، تتخلى عني في هذا الوقت العصيب ، فمن أطمع في نجدته ؟

أثر هذا القول في قلب « موتسارت» الطيب . فوافقه ، ثم سأله ، كيف يرى أن تكون هذه الأوبرا ؟

ــ أريد أن تكون هذه الأوبرا أعجوبة، أوبرا لا مثيل لها تسحر من أهل (فينا) اللب والسمع ، تجمع بين النار والماء ، والوحش والمستأنس بل سأظهر فيها زوجا يكون نصفه إنسيا ونصفه طائرا وسأقدم لك الموضوع بعد ثمانية أيام .

ـ سأحقق لك أمنيتك ! وسأقوم لك بتلحين تلك الأوبرا الجديدة باذلا فيها قصارى جهدي لتكون فريدة في نوعها

ـ أنت أنبل فنان ، وأشرف مخلوق . قال « شيكانيدر » ذلك وهو يضم « موتسارت » إلى صدره ، ثم استمر يقول ... أوبرا جديدة .. من « موتسارت » سيجن العالم عند سماع هذا الخبر ـ أما أنا فقد أنقذت

وقبل الموعد المحدد تسلم « موتسارت » موضوع الأوبرا وهي : « الناي الساحر »

وفى اليوم الثانى من تسلم الأوبرا حضر « شيكانيدر » ليطمئن على رأى « موتسارت » فى موضوعها ، ونظمها

— أتدرى يا « شيكانيدر » كيف يخيل إلىّ وأنا أقرأ روايتك ؟ إنها كحلم مجنون . لن يستطيع إنسان مهما بلغ به الذكاء أن يدرك لها كنها ، أو يفهم لها معنى ، ولن يعرف أحد إن كانت وقائعها تجرى على الأرض ، أو تمثل فى القمر ، إنها ملأى بأناس لا شخصية لهم ، ولا جنسية ، ومناظر يتدخل الواحد منها فى الآخر دون ترتيب ، أو نظام، أو شكل مفهوم . .

فقاطعه « شيكانيدر » بقوله :

— يا صديقى ! ، أليس فى كل هذا ما يوقظ قوة الخيال فى الجمهور ويثير عجبهم ودهشتهم ؟ وما رأيك فى روعة النظم ؟

فأجابه « موتسارت » فى تهكم شديد :

— حقا إن النظم رائع !! أنظر إلى قولك فيه :

« المرأة تعمل قليلا وتتكلم كثيرا — أيها الصبى ، هل تؤمن بدمية تتكلم »

— صدقنى يا « موتسارت » ، وأنا خبير بشئون المسرح ، عالم بذوق أهل (فينا) أن هذا خير ما يتفق وذوق العصر . وسنستولي على حس الجمهور وسمعه

— والزوجان اللذان نصفهما إنسى ونصفهما طائر ، كيف يظلان فى ديالوج كامل لا يغنيان إلا مقطعا واحد هو با با با با با با با با الخ

— أليس فى هذا ابتكار منقطع النظير ؟ وتجديد لم يألفه الجمهور ؟

وإذ وجد « موتسارت » أن حواره مع «شيكانيدر » فى هذا الشأن غير مجد فقد وافقه على تلحين تلك الأوبرا ،واختتم هذا الحوار بقوله له :

— سألحن لك الرواية ، ولو أنى سأضحك من نفسى أثناء تلحينها .

وأقبل « موتسارت » على تلحين أوبرا « الناى الساحر » بجد ونشاط ، شأنه فى تلحين أوبراته . ولم يتركه « شيكانيدر » يتفرغ وحده للتلحين ، بل كان يتردد عليه من يوم لآخر ليستمع ما أنجزه منها وكان كثير النقد لألحان « موتسارت » يطالبه بكثيرمن التغيير والتعديل فيها بحجة أنها لا تتفق وعقلية الجمهور فكان يستبعد منها كل ما يراه دقيقا رقيقا ، إنما كان يريد أن تكون الألحان بسيطة ، غير متعمقة فى الفن

كان « شيكانيدر » يقول لموتسارت :

— نريد أن يستمتع الجمهور باللحن ، لا أن يفكر فيه ، ولا بد أن نستهوى حواسه ونكسبها . أى « موتسارت » ! أعط الناس ما يشتهونه وما يستطيعون احتماله ، إن شعب (فينا) شعب مرح ، ميال إلى الضحك

والسمر ، فان فكر لا يميل إلى التفكير العميق

وإذ لم يكن هذا مبدأ « موتسارت » ، ولا رأيه فيما ينبغى أن يكون عليه التلحين فقد كان رد تلك الدعوى بقوله :

ـ إن للفن رسالة أشرف من ذلك ، يجب أن يرقى الفن بالشعب لا أن ينزل إليه ، وأن يسمو الفنان به إلي منازل الحقيقة والخلد

فيجيبه « شيكانيدر » فى استنكار :

ـ أعرف ذلك يا « موتسارت » حق المعرفة وأعرف أن للفن رسالة شريفة ، ولكن يجب أن تقود الناس فى هوادة وبطء وأن يكون إرشادك لهم بالتدريج . الفنان يا « موتسارت » كالطبيب يصف دواء مريرا يتعاطاه المريض نقطة نقطة فإن زادت الجرعة انقلبت النتيجة إلى عكسها ، فما بالك تريد أن يتجرع الشعب ، لا كأسا واحدة ، بل الزجاجة كلها دفعة. إنك يا « موتسارت » تحمل الشعب ما لا طاقة له به

وكان « شيكانيدر » يسترسل فى التدليل على حجته فيقول :

ـ أى « موتسارت » أبعد عن خاطرك التفكير فى القيصر والبلاط والأوبرات الإيطالية ، فقد تبينت أن هذا الطريق لا يزيدك إلا فشلا . اتجه يا « موتسارت » ناحية الشعب ، فكر فيه وحده، واكتب له تأليفا من الألحان يجمع بين الحقيقة والجمال ويماشى عقليته وذوقه ولقد تعمدت أن يكون موضوع الرواية شيئا غريبا حتى يحرك قوة الخيال فى

الجمهور اذ أنه كلما كان الموضوع مألوفا ، فتمثل الرواية صورة من صور الحياة كان ذلك أدعى لفشلها وعدم نجاحها

كان « موتسارت » يسمع الى مثل هذا القول من « شيكانيدر » كأنما هو فى حلم ، حتى نزل على ارادته

بل لقد تدخل « شيكانيدر » فى التلحين فكان يستمع الى كل لحن ينجزه « موتسارت » فيحتفظ به إن راق له أو يطلب اليه تعديله وإدخال كثير من التغيير فيه أو حذفه اطلاقا اذا وجده فوق طاقة الجمهور

وهكذا كان تدخل « شيكانيدر » فى تلحين هذه الأوبرا الخالدة « الناي الساحر » سببا فى حرمان العالم أروع ألحانها وأقيمها ، تلك التى امتدت اليها يد الحذف والتغيير

ومن يدري فلعل هذا أيضا سببا من أسباب نجاحها وخلودها

قداس الحداد

في يوم من أيام ١٧٩١ أقبل على « موتسارت » شيخ شاحب اللون تعلو وجهه أمارات الجد ، في لباس بسيط ، وقد وضع على قبعته وذراعه شارة الحداد

قدم الشيخ رسالة إلى « موتسارت » غفلا من التوقيع ، لم يبح كاتبها فيها باسمه ، إنما يطالب إلى « موتسارت » أن يؤلف له قداس حداد يلقى في الكنيسة عند وفاته ، ويقول إنه مستعد لدفع ما يطلبه الفنان من المال نظير ذلك ، كما أنه يفسح له الوقت الكافي للتلحين كما يريد .

وإذ انتهى « موتسارت » من قراءة الرسالة خاطب الشيخ قائلا :

— إن الرسالة خلو من التوقيع .

فأجابه الشيخ في شيء من الفتور :

— ليس الاسم بالشيء الذي يهم

— ومن تكون أنت ؟

— إني رسول مكلف بأن أعود بالرد .

أخذ « موتسارت » يفكر في الأمر . وطاف بذهنه خواطر أصدقها أنه حتى الآن وبرغم كثرة نتاجه الموسيقى لم يؤلف لحنا كنائسيا واحدا من هذا النوع المطلوب ، على عظيم أهميته الفنية التي

لا تقل أهمية عن فن الأوبرا ، وكان يتمني لو تتاح له مثل هذه الفرصة ليستطيع تقديم نتاج له فى هذا النوع من الموسيقى الدينية

ــ سأصنع قداس الحداد المطلوب ، ولكننى لا أستطيع أن أعين لك يوما للانتهاء منه .

ــ ما فى الأمر عجلة . وما قيمة الأجر ؟

ــ أربعون جنيها

فأخرج الشيخ محفظة نقوده من جيبه . وعد المبلغ على المنضدة وهو يقول :

ــ إني مفوض فى أن أدفع لك المبلغ حالا . وعند تسلمى تلحين القداس سأنقدك مبلغا آخر

ــ إلى أين أرسل التلحين بعد إنجازه؟

ــ سأحضر وأتسلمه أنا بنفسى.

قال الشيخ ذلك وقد فرغ من عد النقود ثم انصرف فى صمت .

نظر موتسارت إلى الذهب البراق ، وكان فيه معونة غير منتظرة لما هو فيه من ضيق شديد . بل لقد كان فيه مسرة لموتسارت لولا أنه شعر بانقباض فى نفسه بسبب ذلك الرسول المتنكر . إنه سر خفى وطلب محزن رهيب

وكان موتسارت لا يزال عاكفا على عادته من مواصلة العمل طوال

الليل . ولقد بدأت آثار هذه العادة السيئة تظهر فى صحته فأخذ جسمه فى النحول والهزال وزاده سوءا حالته النفسية وشعوره المرير بعدم تقدير الناس له . فلقد منح العالم أعمالا خالدة وورثه تاجا يبقى على الزمن وهو مع ذلك محسود من أعدائه منكور من القيصر ورجال البلاط

إذن فقد وجد موتسارت فيما طلبه هذا الرسول الخفى خلاصا نفسيا له من متاعب هذه الحياة الدنيا ، وجدها فرصة يتخلص فيها من العالم المتعب ، ويتجه بها إلى الله بالتضرع إلى عبادته فيما يصوغه من الألحان فى هذا القداس الدينى

أقبل « موتسارت » على عمله ، ولكنه قبل الشروع فيه فوجىء بضرورة سفره الى مدينة «براج» حيث يتوج القيصر «ليوبولد» ملكا على أراضى « بوهيميا » ، وطلب الى « موتسارت » تلحين أوبرا لهذه المناسبة وهى أوبرا « تيتوس »

واذ لم يكن هناك من الوقت لإنجاز هذه الأوبرا غير ثمانية عشرة يوما فقد اضطر الي سرعة السفر مصطحبا معه تلميذه «زيسماير» وكان أحب تلاميذه اليه وموضع ثقته ؛ وكان لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، فعاون أستاذه الذى عكف علي تلحين تلك الأوبرا ، وهو فى طريقه الي المدينة

هال أهل « براج » وأصدقاء موتسارت ما رأوه عليه من هزال

وشحوب ، وما لمسوه فيه من هم ونكد ظاهرين اختفت معهما روحه المرحة التي تعودوها منه في جميع مجالسه

وفي يوم ٦ سبتمبر ظهرت أوبرا (تيتوس) لأول مرة ، وكان المنتظر أن يلقى هذا العمل الفني العظيم ما هو أهل له من الإكبار والتقدير سيما من أهل (براج) الذين خصوا « موتسارت » بحبهم ، وحبوه بتشجيعهم ، ولكن كان في فخامة مهرجانات التتويج ، وازدحام المدينة بأهلها والنازحين إليها ما صرف هذه الجماهير عن أوبرا « موتسارت » هذا النتاج الفني إلى سواه من ألوان المظاهر الخلابة والمهرجانات المفرحة

وإذن فقد عاد « موتسارت » إلى « فينا » ، مهيض الجناح ، كسير الخاطر ، يحز في نفسه ألم إغفال نتاجه ، وعدم تقديره ، حتى من أهل (براج) الذين كان يعتقد شدة تعلقهم بفنه

وإذ بدأ « موتسارت » في تلحين (قداس الحداد) ، بعد عودته شعر بهبوط مطرد في قواه ، وضعف شديد في صحته ، حتى قال :

« أحس أنني أكتب هذا القداس لنفسي »

وكان هزال جسمه يطرد بسرعة كبيرة حتى خيل اليه أن أعداءه قد دسوا السم له للتخلص منه . وكان وهو في هذا الاعتلال الصحي كثير الاهتمام بإنجاز (قداس الحداد) الذي تناول أجره مقدما ، ليتحرر من تبعته

واشتد الضعف والسقم عليه حتى خشى شيكانيدر عدم استطاعة الفنان إتمام أوبرا « الناي الساحر » وكان محددا لظهورها علي المسرح يوم ٣٠ سبتمبر ولا يزال بعض مواقفها من غير تلحين كما أنها لا تزال من غير مقدمة (أوفرتير)، فلازمه حتى فرغ من كل شيء فيها قبل الموعد بيومين .

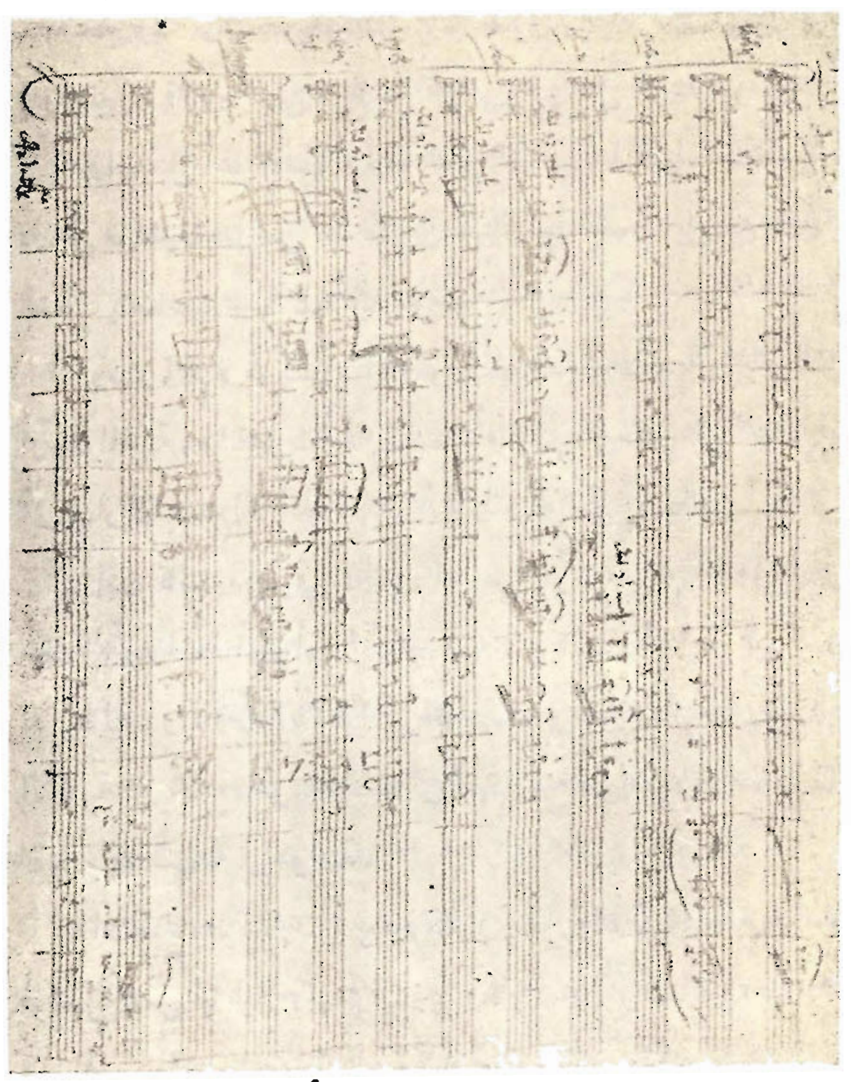
واستقبل أهل (فينا) أوبرا « الناى الساحر » استقبالا منقطع النظير دل على ما لشيكانيدر من بعد نظر فى تفهم نفسية الشعب. بل لقد كان إقبال الشعب يتضاعف عليها كلما أعيد عرضها

وصار اسم « موتسارت » وموسيقاه حديث الأندية والمجتمعات فى أرجاء المدينة ، وانتشرت ألحان تلك الأوبرا فى كل مكان حتى كان الإنسان أنى صار لا يسمع إلا ألحان « الناى الساحر » تغنى أو تصفر

إذن كانت موسيقى « الناي الساحر » موسيقى شعبية وفى الحق إن تلك الأوبرا تعد أول أوبرا ألمانية بحتة ، وكانت الحد بين فن الأوبرا الإيطالية ، والأوبرا الألمانية . بل لقد دلت سرعة انتشارها فى جميع البلاد الألمانية على نجاح « موتسارت » فى تفهم روح مواطنيه ، ومنحهم اللون القومي المناسب له فى موسيقاه

استطاع « موتسارت » بعد ذلك أن يتفرغ لتلحين « قداس الحداد » ، فواصل العمل فيه ليلا ونهارا . وعبثا حاولت « كونستانسه » صرفه عن هذا المجهود المضنى احتفاظا بالبقية الباقية من صحته ، ولكنه كان يحس رغبة

ماحة فى إنجاز هذا القداس، وكانت تلك الرغبة تتزايد فيه يوما بعد
حبا فى أن يكون هذا التأليف آخر ما يتقرب به إلى الله فى حياته .



(صفحة نوتة من خط موتسارت في أوبرا الناى السحر)

أغدقت أوبرا « الناى الساحر » المال وفيرا ، ولكن لا على صاحبها « موتسارت » بل على « شيكانيدر » الذى أصبح مثريا كبيرا حتى افتتح له مسرحا جديدا بفينا أكبر وأفخم مما كان له . وبلغ به نكران الجميل أن انقطع عن « موتسارت » ولم يمده بنذر من دخل هذه الأوبرا . بل لقد بلغ من تبجح « شيكانيدر » وشدة تنكره لموتسارت أن خول لنفسه حق الاتفاق مع مسارح المدن الألمانية الأخرى، وبيع هذه الأوبرا لها، وتنازله عن حقوقها

أحزن هذا التصرف « موتسارت » وزاد فى كمده فتحامل عليه المرض إلى درجة جعلت طبيبه يلح فى نصحه بالابتعاد عن العمل بتاتا ، ولكن أنى له ذلك ولما يفرغ من تلحين القداس ؟

اشتدت وطأة المرض على « موتسارت » حتى عجز عن القيام بتدوين ما يصوغه من ألحان القداس فوقف إلى جانبه في محنته هذه تلميذه المخلص « زيسماير » يعاونه ويدون لأستاذه ما يصوغه

أمل تحقق بعد فوات الوقت

كانت أغلى أماني الوالد « موتسارت » التي ظل يتطلع إلى تحقيقها طوال حياته أن يرى ولده « فولفجانج » في وظيفة ثابتة تكفل له رغد الحياة ، وطيب العيش وكانت أعز آمال « كونستانسه » أن ترى زوجها كذلك في وظيفة ثابتة تضمن لها ولأولادهما حياة مطمئنة هادئة تبعدهم عن آلام الفاقة ، وشظف العيش بل لقد كان ما يتطلع إليه « موتسارت » نفسه أن يشغل وظيفة فنية رئيسية تتناسب ونبوغه في فنه، تيسر له سبل الإنتاج دون صرف الجهد في الحصول على القوت

تحققت هذه الأماني فخلت وظيفة رئيس فرقة كنيسة (سانت ستيفان) وكانت من أكبر الوظائف الموسيقية بفينا ، ذات دخل ضخم ومنزلة سامية رفيعة ووقع اختيار المجلس البلدي على « موتسارت » ليشغل هذه الوظيفة فوجه إليه خطاب التعيين

تلقى « موتسارت » خطاب التعيين الذي يحقق في طياته أعز ما كان يرجوه ويتمناه هو وأهله ، ولكنه كان طريح الفراش تنتابه حمى شديدة . ولم يمض على ذلك أسبوع كامل حتى فرغ « موتسارت » من تلحين « قداس الجناز » فاستدعى إليه طائفة من أصدقائه وتلاميذه لإلقائه .

حضر الجمع وقاموا بأداء ألحانه غناء وعزفا وكان « موتسارت » يغنى معهم ممسكا بيده ورقة يقرأ منها ، كما كان تلميذه « زيسماير » يعزف على البيانو .
وبينما الجميع منشغل بالأداء خارت قوى الفنان فسقطت الورقة من يده ، ولم يعد فى استطاعته متابعتهم



الأذن الطبيعية   أذن موتسارت

كان ذلك يوم ٤ ديسمبر سنة ١٧٩١ وإذ حضرت فيه شقيقة « كونستانسه » للزيارة لم يقو « موتسارت » عند رؤيتها أن يتلفظ إلا بعبارة واحدة ، هى قوله لها « أقيمى عندنا الليلة فهى آخر أيام حياتى » وعاده الطبيب فى هذا اليوم غير مرة ، ولكن طبه عجز عن إسعافه فحم القضاء وفاضت روح « موتسارت » إلى بارئها فى الساعة الأولى من صباح يوم ٥ ديسمبر

انتشر هذا الخبر المحزن فى (فينا)فعمها الأسى ، وشملها الحـزن . وإذ كانت زوجه « كونستانسه » لا تملك وفرا من المال فقد عجـزت عن تجهيزه وإعداد ضريحه حتى عاونها فى ذلك البارون « سويتن » وكان من أخلص النبلاء المعجبين بفن « موتسارت » ، كما قدم لها القيصر بعض المعونة

وتحدد يوم ٦ ديسمبر لتشييع الجناز وقد غضبت الطبيعة وكأنما أبت إلا أن تصب نقمتها على أهل (فينا) فى يوم موت « موتسارت » الذى عاش بينهم فلم يقدروا له موهبة ولم يعرفوا لعبقريته قدرا ، فتلبد الجو واكفهرت السماء فحجبتها سحب قاتمة ، ثم أرعدت وأبرقت وأمطرت الأرض بردا ، وعصفت الرياح فكانت تقذف بالبرد في وجوه الناس

وكانت هذه الظواهر الطبيعية خاتمة الحلقات السيئة لموتسارت أيضا ، حيث حالت لشدتها بين الأهـالي وتشييع جنازته ، فلم يقـو على مصاحبة جثمانه إلي مقره الأخير غير خمسة من أصدقائه لم يكن بينهم حتي « شيكانيدر » ، بل كان بينهم تلميذه المخلص « زيسماير » والنبيل البارون « سويتن » ، وحتى هؤلاء حال بينهم وبين ملازمة الجثمان حتى القبر بعد الطريق إلى الضريح فاضطروا للعودة تاركين الجثة لسائق العربة الذى انطلق بها فى غير اكتراث

وإذن فلم يشهد أحد مواراة الجثة التراب ، ولم يشيعه فى دفنته غير

أمه الموسيقى التي احتضنته منذ طفولته ووهبته رعايتها طوال حياته ، وهى اليوم تقف بجوار جثة فقيدها الأوحد تخاطبه :

« أى ولدى « موتسارت » ! أنت اليوم وحدك ، وفى الغد سيلتف الناس حولك . لقد تنكروا لك في حياتك ، ولكنهم سيشيدون بذكرك بعد مماتك ، لقد حرموك العيش ، وستمنحهم غدا الحياة ، ولئن خافوا شهرتك فى دنياك فعملوا على إخفاء صيتك ، فسأذيعه بعد مماتك حتى ينقش على صفحات التاريخ الأبدى اسمك الخالد « فولفجانج أماديوس موتسارت »

نوادر موتسارت

وكلمات فيه

نوادر

كان موتسارت يزاول التجربة الأخيرة لإخراج أوبراه « دون جوان » وكان على بطلة الرواية فى ختام الفصل الأول أن تصرخ طالبة الاستغاثة، غير أنها لم تصرخ على حالة من الفزع ترضى « موتسارت » فأعاد الموقف غير مرة ولكن بدون جدوى ، فتريث الفنان هنيهة ثم طلب إعادته مرة أخرى ؟ وتسلل خفية إلى المسرح ، حتى إذا حان وقت الاستغاثة فجأ المغنية بالهجوم عليها فصرخت مرتاعة عندئذ قال لها : « هكذا يجب أن يكون تمثيل الدور »

* * *

عند ما ظهرت أوبرا « دون جوان » انقسم الناس فريقين ، مادحا وقادحا . أخذ كل فريق يدعم وجهة نظره . وأخيرا اعتزم الفريقان الاحتكام إلى الموسيقار الأعظم جوزيف هايدن فقال : أنا لا أستطيع أن أقضى في هذا الخلاف ، إنما أعرف شيئا واحدا ، هو أن «موتسارت» أكبر ملحن فى عصرنا الحاضر

***

كان « موتسارت » شديد الايمان بقدرة أستاذه «هايدن» يجل فنه

ويضعه فوق مستوى النقد ولا يسمح لأحد أن ينال منه . حدث فى أحد المجالس أن أبدي الموسيقار كوزولوخ معايب التلحين فى إحدى قطع « هايدن » فقال « موتسارت » في هدوء : يا سيدى العزيز لو أتيح أن نصهر ، أنا وأنت معا ، لنؤلف موسيقيا واحدا ، لبقيت أمامنا مرحلة طويلة قبل أن نبلغ قدر « هايدن »

وفى مرة أخرى كان « موتسارت » وكوزولوخ يستمعان فى حفل الى رباعية وترية من تلاحين « هايدن » فلما وصل العزف الى موضع معين قال كوزولوخ : لو كنت أنا الملحن لكان تلحيني لهذا الموضع غير ذلك . فأجابه « موتسارت » : صدقت ، وأنا أيضا ، ولماذا ؟ لأن كلينا لا يوفق الى إلهام « هايدن »

* * *

كان « موتسارت » مدعوا على مائدة القيصر فتحلل من التقاليد والمراسيم وأخذ في الحديث دون كلفة ، يمرح كعادته إذا ما كان معتدل المزاج ، فلم يرق هذا لبعض كبار القواد ، ورأوا لزاما أن يضعوا بين يدى القيصر أمر إخلال « موتسارت » بالتقاليد ولكن القيصر أجاب : « خلوا عن « موتسارت » واتركوه فى هدوء ! انى أستطيع أن أصنع فى كل يوم قائدا ، ولكننى لا أستطيع أن أصنع موتسارت واحدا »

* * *

زار طفل معجز في الموسيقى « موتسارت » وسأله : كيف أستطيع

أن ألحن ؟ فقال فى حزم ينبغي لك أن تنتظر حتى تتقدم سنك وتحفظ كثيرا . فقال الصبي فى دهشة : ولكنك لحنت وأنت لم تعد الثانية عشرة من عمرك ؟ فأجابه « موتسارت » مبتسما : ولكنني لم أسأل أحدا وقتذاك كيف ألحن

* * *

تنادر جماعة من الملحنين فى مجلس بمدينة ميونيخ وهم على مائدة الطعام وإذا بأحدهم يقف متحمسا ويقول ليحيي « موتسارت » فأجابه آخر لست فى حاجة لأن تطلب الحياة لموتسارت ، فإن « موتسارت » باق على الزمن

* * *

كان « موتسارت » مرحا خفيف الروح ، يميل الى الفكاهة والمداعبة ، ومن نوادره أنه بينما كان جالسا مع « هايدن » في بيته مع جمع من أصدقائهما ساقهم الحديث الى التكلم عن البيانو ، فقال « موتسارت »

— انى أراهن أستاذى (يقصد هايدن) على ست زجاجات من الشمبانيا ، أن فى استطاعتي أن أكتب له لحنا للبيانو يعجز عن توقيعه طوال أيام حياته ، ولن يسعفه فيه طول التدريب عليه

فضحك الجميع من كلام « موتسارت » إذ كان « هايدن » أكبر موسيقار اذ ذاك ، ولكن « هايدن » قبل الرهان ، فاستحضر « موتسارت » ورقة كتب

عليها بعض العلامات الموسيقية ثم أعطاها لأستاذة الذى أخذها وجلس أمام البيانو وبدأ يوقعها غاية فى السهولة ، حتى إذا بلغ موضعا معينا من اللحن توقف عن العزف فجأة وقال :

— كيف يمكن أن يوقع ذلك ؟ يد فى آخر البيانو من الجهة اليمنى ، والأخرى فى نهايته من الجهة اليسرى ، ثم يتطلب فى نفس الوقت توقيع نوته وسط البيانو ؟

فأجابه «موتسارت» :

— نعم يمكن ذلك ، وهذا هو موضع الرهان ، فتخل أنت عن البيانو وسأوقعها أنا .

ترك «هايدن» البيانو ، وجلس «موتسارت» إليه ، وبدأ توقيع اللحن حتى إذا ما بلغ هذا الموضع المقصود وقع النوتة التي وسط البيانو بأنفه . وبذلك كسب الرهان . وكان ذلك غاية فى التندر والمفاكهة

كلمات

ـــ إن تلاحين موتسارت تتوشح دائما ثوبا جديدا كلما أكثر المرء من سماعها

شومان

ـــ لا تعطوا الشباب فى أول حلقات حياته تلاحين بيتهوفن بل غذوه وقووه بمؤلفات موتسارت فإنها بهيجة ملأى بالحياة

شومان

ـــ لقد آثرت موتسارت بحبى دون جميع الموسيقيين ، إنه هو المفرد العلم

روسينى

ـــ كان موتسارت العظيم فى عالم الألحان معجزة ، لا يقصر ولا يزيد ولا يعدو الغرض الذى يقصده . وكان الجمال طبيعة فى ألحانه

جريلبارتسر

ـــ انى أعتقد ـ بعد الله ـ فى موتسارت ، وبيتهوفن

فاجنار

ـــ لا يستطيع الألمانى أن يقدر موتسارت حق قدره فى « الناي الساحر » فقد يصح القول بأن الأوبرا الألمانية كانت عدما قبلها فخلقتها هذه الأوبرا خلقا

فاجنار

— العبقرية الموسيقية ، كالاعجاز الذي ظهر فى موتسارت، تتجلى فى أصغر حلقات العمر ، وهى دليل على أن الموسيقية تولد مع المرء كامنة فى نفسه وليست مكتسبة من الخارج ، مالها منه غذاء قل أو كثر ولا استفادة تكسب من خبرة الحياة

هينا

— أعد نفسي ، فى كل وقت من أكبر المعجبين بموتسارت ، وسأظل كذلك حتى ألفظ آخر أنفاس حياتى

بيتهوفن

— إيه يا موتسارت ، أيتها العبقرية الخالدة ، كم أشعت فى خلجات نفوسنا ضياء أبديا ، وأفعمتها حياة هى النور والاسعاد

شوبرت

— من المحقق أن شخصية كموتسارت ستظل على الدهر معجزة ليس فى الامكان تفسيرها

ايكرمان

(في حديثه مع جيتا ١٤ فبراير سنة ١٨٣١)

— إن فى أعمال جلوك « وموتسارت » ما ينطق بأهلية الموسيقى لأن تقف وحدها على قدميها دون معاونة شقيقاتها من الفنون

فاجنار

للمؤلف

١ — الكوميدى الحديث (المجموعة الأولى من أزجاله المسرحية)
طبع سنة ١٩١٧ القاهرة

٢ — أشهر مشاهير الموسيقى العربية
طبع برلين سنة ١٩٢٣

٣ — رسالة «الكندى» فى خبر تأليف الألحان (مع الدكتور روبرت لاخمان)
طبع ليبزج سنة ١٩٣١

٤ — ابن سينا وتصانيفه الموسيقية
طبع برلين سنة ١٩٣١

٥ دراسة القانون (مع حضرة صاحب العزة مصطفى رضا بك)
طبع القاهرة سنة ١٩٣٤

٦ — موسيقى قدماء المصريين
طبع القاهرة سنة ١٩٣٦

٧ صور التاريخ الموسيقى
طبع مصلحة المساحة بالقاهرة سنة ١٩٣٧

٨ الموسيقى النظرية
القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨
الثانية « ١٩٣٩

٩ — موتسارت قصة الطفل المعجز والموسيقى العبقرى
طبع القاهرة سنة ١٩٣٩

